الفكر واللغة

للأستاذ الدكتور ابراهيم بيومى مدكور بك
عضو مجمع فؤاد الأول للغة العربية

اللغة ابتكار من أبدع ما وصل إليه الإنسان، وأداة تمتاز بكثير من الإتقان والإحكام، ووسيلة ناجعة من وسائل الترابط والتفاهم بين الأفراد والجماعات. وهى ظاهرة متشعبة النواحي والأطراف قد أثارت ألواناً شتى من البحث والدراسة. وإذا تركنا جانباً ما يتصل بها من دراسات أدبية ونحوية وصرفية، فإنها وجهت إلى بحوث أخرى متعددة

فعرض لها علماء وظائف الأعضاء ليعرفوا كيف تؤدى، ويبينوا أعضاء النطق والصوت، ويوسعوا فى اختصار الجهاز العضوى للغة. وعالجها علماء النفس لما رأوا من صلة وثيقة بين العمل الذهني والدلالات اللغوية. وعنى بها علماء الاجتماع مبينين نشأتها وتطورها، ومقارنين بين اللغات البدائية واللغات المتحضرة، ومعلنين أن اللغة ظاهرة اجتماعية تخضع لما تخضع له الظواهر الاجتماعية من عوامل ومؤثرات، ونظر إلى اللغة أخيراً على أنها جزء من التاريخ يسجل الماضى، ويحكى الأحداث، بل هى نفسها قطعة تاريخية متحركة يجب درسها وبحث معالمها

ودون أن نعرض لهذه النواحى المتعددة، نود فقط أن نوجه النظر إلى ما بين الفكر واللغة من صلة. وفى هذه الصلة ما يلقى كثيراً من الضوء على مناقشاتنا وعملنا المجمعى، وخاصة فيما يتصل بالمصطلحات ووضعها، والمترادفات وقيمتها، وألفاظ الحضارة وتجـددها، والتعبيرات المبتكرة ومدى الحاجة إليها

ولا شك فى أن المعنى وثيق الصلة باللفظ الذى يؤديه، لأنه ثوبه ووعاؤه، وبدونه يضل ويصبح كأن لا وجود له. فلا يمكن تبادله بين الأفراد، بل ولا استحضاره فى ذهن الفرد الواحد. وقديما قالوا: التفكير حديث نفسى. ومن هنا ارتبط التفكير باللغة، وبالأخص فى صوره السامية كالحكم والاستدلال

* * *

وإذا تأملنا الفكر واللغة وجدنا أن كل واحد منهما يؤثر فى الآخر ويتأثر به. فاللغة فى نشأتها تخضع إلى مدى بعيد للنشاط الذهنى والميول والاتجاهات النفسية. وما لغة الأطفال إلا حركات وإشارات تبعث عليها غرائز واستمدادات، يدفع الطفل يده إلى الأمام مشيراً إلى التقدم إلى الخلف، أو مشيراً إلى التراجع، وكل تلك حركات تعبر عن انفعالات داخلية. ولا تلبث هذه الحركات أن تتحول إلى إشارات، والإشارات إلى أصوات، والأصوات إلى ألفاظ وجمل. وبذا تنشأ اللغة فى تدرجها الطبيعى، وتقوم على أساس سيكولوجى

لم يؤثر الفكر فى نشأة اللغة فحسب، بل سـاهم أيضاً بنصيب ملحوظ فى حفظها والإبقاء عليها. ذلك لأن تعلم اللغة بين أبناء الجيل الواحد يعتمد على السماع والحفظ، وتبادلها بين الأجيال المتلاحقة لا سبيل إليه إلا بالنقل والرواية. ودعامة ذلك كله الذاكرة والحافظة، ولولا الذاكرة ما كانت لغة كما يقولون. وقد يكون فى الكتابة ما يرفع عن كاهلنا اليوم بعض عبء الاحتفاظ باللغة، ولكن كم من جماعات عرفت لها لغات تداولتها وتوارثتها دون أن يكون للكتابة فيها أثر ملحوظ، وإنما عولت على الذاكرة وحدها. وكلنا يعلم أن قوة التذكر أوضح فى حياة البداوة منها فى حياة الحضر، لأن المتحضرين فى اعتمادهم على القلم والقرطاس يضعفون الذاكرة ويقللون استخدامها. على أن الكتابة نفسها لا يمكن أن تتعلم وتكتسب إلا بقسط ضرورى من الحفظ والتذكر.

وللحياة الفكرية أثر آخر فى نهضة اللغة ونموها، إذ لولا تجدد المعانى وتباينها ما تجددت الألفاظ، ولا تنوعت التراكيب. ولولا عمق الفكرة وتحددها ما كانت دقة اللفظ وتخيره. وكم

محاضرة ألقيت فى مؤتمر المجمع بجلسة من جلسات يناير سنة ١٩٥٢

جرجيس الزيات

يشعر المتكلم أو الكاتب أن اللفظ أو التعبير الذى استعمله لا يؤدى تماماً المعنى الذى يريده، فيحاول البحث عن غيره ليكون أكثر ملاءمة . وثروة اللغات تتفاوت فيما بينها تبعاً لنشاط الحياة الفكرية وتقدم العلوم والفنون . ولسنا فى حاجة إلى أن نشير إلى أن عصر ازدهار اليونانية قد اقترن بتلك النهضة الفلسفية والفنية التى عرفتها أثينا فى القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد . وقد لوحظ أيضاً أن أسماء الذوات تغلب أسماء المعانى فى اللغات البدائية ، لأن البدائيين لا يلجئون كثيراً إلى التعميم والتجريد . وتساهم فكرة الزمن بنصيب أوضح فى لغة المتحضرين منها فى لغة الشعوب الهمجية . وتبادل العلوم والفنون بين الأمم لا يقتصر على تبادل الأفكار ، بل يصاحبه أيضاً تبادل بعض الألفاظ والأساليب الدالة عليها ، وكثيراً ما كشفت هذه عن أصل تلك

وللغة بدورها أثر قوى فى التفكير ، فهى إلى مدى بعيد مادته ودعامته ؛ ذلك لأن الدال والمدلول متلازمان ، وقل أن يستحضر أحدهما فى الذهن بدون الآخر . وقد سبق لأرسطو أن قال تلك الجملة المشهورة التى قدر لها أن تحيا مع الزمن ، وهى : ليس ثمة تفكير بدون صور ذهنية . وفى مقدمة هذه الصور تجىء طبعاً الرموز اللغوية . ولم يحاول أحد نقض هذه القضية إلا فى القرن التاسع عشر ، يوم أن جاءت مدرسة فورتسبورج ، وذهبت إلى أن هناك ضرباً من التفكير مجرداً من تلك الصور الذهنية ، كتفكير الأطفال الذى تمليه طائفة من الميول والغرائز ، أو كتلك اللمحات والخواطر التى تمر بالذهن عابرة وكأنها معنى مجرد من كل كساء

ودون أن نقف طويلا إزاء هذين الرأيين المتقابلين، نود أن نلاحظ فقط أن الحدس ليس إلا ضرباً من التفكير . وهناك ضروب أخرى ذات حلقات لا يمكن ربط بعضها ببعض إلا بواسطة الرموز اللغوية

على أن الحدس نفسه قد يستصحب لفظاً أو ألفاظاً ، ولذا قالوا إن المرء يفكر فى كلامه قبل أن يتكلم عن تفكيره

إن الكلام لفى الفؤاد وإنما   جعل اللسان على الفؤاد دليلا

فالتفكير السامى أو التفكير المنطقى الذى هو سلسلة من الحكم والاستدلال لا غنى له عن اللفظ والعبارة

والألفاظ فوق هذا هى الوسيلة لتحديد الأفكار وتمييز بعضها من بعض . وإذا كانت المدلولات متنوعة ، فإن اللازم أن تتنوع الدوال تبعاً لها . ولا شك فى أن الأفكار متفاوتة معنى ومدلولا ، عموماً وخصوصاً ، جنساً ونوعاً . ولولا الألفاظ ما أمكن تقسيمها وتصنيفها ، ولا تحليلها وتركيبها . وآية الفكر الدقيق تعبير دقيق يؤديه . والعبارة المحكمة تؤدى عادة إلى تفكير محكم ، وبذا تنوعت العلوم ، وتحددت موضوعاتها ، وامتاز كل منها بمصطلحاته . وما العلم إلا لغة أحكم وضعها

واللغة أخيراً سبيل تداول الأفكار وتبادلها ، فهى التى تنقلها من فرد إلى فرد ، ومن جماعة إلى جماعة ، وإلا بقيت وقفاً على أصحابها ومحبوسة فى أذهانهم . وإذا كان التفكير الفردى يخضع للمجتمع ويتأثر به ، فإن للغة دخلا كبيراً فى هذا الخضوع والتأثير . ومن أهم مزايا اللغة قدرتها على أداء المعانى وتيسير تبادلها ، وفضل لغة على أخرى يرجع فى قسط كبير إلى اتساع تداولها وكثرة المتخاطبين بها

* * *

فى وسعنا أن نقرر إذن أنه إذا كانت اللغة ثمرة للتفكير ، فإنها هى أيضاً شرط أساسى لوجوده وتحققه على وجه كامل . هذه هى صلة الفكر باللغة ، وهى فيما يبدو صلة تفاعل وتلازم ، وقد ترتبت عليها آثار عدة ، يعنينا أن نشير إلى اثنين منها فقط . أولهما أنه يمكن أن تدرس الحياة العقلية فى ضوء الحياة اللغوية . فمثلا ضعف النطق أو بطؤه يؤذن بضعف ذهنى . والأطفال لا يعبرون عن أحكامهم عادة بجملة ، وإنما يكتفون بكلمة أو بعض كلمة . ومن هنا نشأ علم النفس اللغوى الذى يرمى إلى تفسير بعض الظواهر النفسية فى ضوء الدراسات اللغوية . ومن أوضح الأمثلة على ذلك ما حاوله « دى شوسير » بالنسبة للغة الكبار ، و « بياجيه » بالنسبة للغة الأطفال ، و « ليفى بريل » بالنسبة للجماعات البدائية . وإذا كانت الدراسات السيكلوجية قد أفادت كثيراً فى الخمسين سنة الأخيرة من تقدم البيولوجيا والفسيولوجيا والباثولوجيا ، فإنها استمدت أيضاً فى هذه الفترة مادة لا بأس بها من الدراسات اللغوية

وفى تاريخ الأدب ظواهر لها دلالتها السيكلوجية ، فيلاحظ أن ازدهار الآداب يقترن دائماً بازدهار العلم والحياة العقلية ، وأنه حين يعتدى على الحرية الفكرية ويعم الظلم والطغيان ينتشر

الغموض والرمز في الألفاظ والأساليب . ولتلك الحرية الفكرية التي نعم بها الأثينيون القدامى شأن في وضوح لغتهم وصفائها .
وإذا كانت المترادفات تمد ثروة لغوية في بعض العصور ، فإنها في عصور أخرى تعتبر سرفاً لا محل له ولا داعي إليه

ومن جهة أخرى شغلت علاقة الفكر باللغة الناطقة منذ أن وضع علم المنطق إلى اليوم . ونحن نعرف أن منطق أرسطو نبت في جو البيان والجدل السفسطائي ، وكان ذا صلة بالنحو اليوناني، بل والعربي . ولأمر ما نطلق كلمة « لوجوس » اليونانية على العقل واللغة على السواء . وقد درج المناطقة منذ أرسطو على أن يعتبروا دراسة الألفاظ والقضايا مقدمة ضرورية لدراسة البرهنة والاستدلال . ولم يقنع المناطقة المحدثون بهذا ، بل شاءوا أن يحصروا المعاني كلها ، ويجمعوا «ألفوباء» الفكر الإنساني ، ويضعوا لكل معنى رمزاً خاصاً به، وبذا تتكون اللغة العلمية العالمية

قال بذلك « ليبنتز » ، فتنبأ بالمنطق الرياضي ، وسبق عصره بنحو قرنين ، وأثار لأول مرة فكرة اللغة العالمية . ولا غرابة فقد كانت اللاتينية لغة العلم والعلماء لعهده . هذا إلى أنه كان عالمي النزعة إن في العلم أو في السياسة . وفي هذه اللغة المنشودة ما يقرب المسافة بين بني الإنسان، وما يحول دون أخطاء كثيرة؛ لأن الخطأ في الحكم والاستدلال كثيراً ما ينشأ عن خلاف لفظي أو غموض في التعبير؛ ويوم يتوفر لكل معنى رمز خاص به نستطيع أن نقول : لنحسب ، بدل أن نقول : لنبرهن

وقد عادت فكرة اللغة العالمية إلى الظهور مرة أخرى قوية متحفزة في أول هذا القرن ؛ وكان من أكبر مناصريها رياضي وفيلسوف فرنسي بارع انتزع فجأة في الحرب الكبرى الأولى ، وهو « كونورا » الذي كان يرمي إلى تهذيب الاسبرنتو وتكوين «الإيدو» ، تلك اللغة الدولية التي تفرض نفسها على جميع العقول وجميع الشعوب . وقد وضع في ذلك معجماً خاصاً، أخذ عنه كثيراً الأستاذ لالاند في معجمه الفلسفي المشهور

والرياضة أقل العلوم حاجة إلى الألفاظ والتراكيب ، لأنها أبعدها مدى في العموم والتجريد . فلذا ما حصرت حقائقها ، واختير لكل حقيقة رمز معين أمكن تكوين لغة رياضية كاملة . وعلى غرار هذه اللغة الرياضية يمكن وضع اللغة العالمية . وقد كان كونورا فوق تخصصه في المنطق والرياضة ملما بأطراف الدراسات اللغوية المقارنة ، فأخذ يبحث عن أصول عامة يمكن أن تتخذ أساساً للغة الدولية ، وحاول فعلا أن يكوّن هذه اللغة ويمد لها نحوها الخاص

ولم تلبث محاولته هذه أن تثير ثائرة علماء الاجتماع الفرنسيين، وعلى رأسهم دركايم . فلم يرتضوا ذلك المنطق الإنساني الذي يقود إلى لغة عالية ، وقرروا أن هناك أسرا لغوية بقدر ما هناك من مجتمعات إنسانية . وسواء أصحت الأسس التي بنى عليها كونورا مقترحه أم لم تصح ، فإن فكرة اللغة الدولية قد ازدادت في ربع القرن الأخير قوة ووضوحا . ولعل في سرعة الاتصال العالمي اليوم ما ييسر سبلها . ويتيح لها الفرصة لتخرج من دائرة الرغبة والأمل إلى عالم الحقيقة والوجود

في هذا العرض السريع ما يلقي بعض الضوء على عملنا المجمعي ومنه نستخلص دروسا نافعة. وفي مقدمتها أن الأصل في المصطلح العلمي أن يؤدى بلفظ واحد ، كي يتوفر لكل معنى رمزه اللغوي الخاص به . فلنتحاش إذن الدوال المتعددة للمدلول الواحد منعا لتكرار لا داعي إليه، وربما أدى إلى شيء من اللبس. والمصطلح المجمع عليه وإن لم يؤد المعنى المراد تماما سينتهي بأن يستقر ويستحضر مدلوله كلما ذكر

ونحن أحرص ما نكون على أن نؤدي المعنى العلمي الجديد بلفظ عربي ، فإن تعذر ذلك فلا ضير في التعريب ، لاسيما إذا كانت الكلمة المعربة ذات صبغة عالية ، وهذا هو المنحى العلمي في مختلف اللغات . ومن ذا الذي يذكر مذهب ليبنتز مثلا ولا يذكر معه كلمة مناد (Monade) ؟ إنا نراها في اللغات الأوربية على اختلافها دون تغيير أو تبديل

وما يقال عن الألفاظ يمكن أن يقال عن الأساليب . فإذا كانت المعاني المفردة تجدد فإن المعاني المركبة التي تعتمد على الرابطة والاسناد تتجدد أيضا . وإذا كنا نحس بحاجة إلى ألفاظ جديدة، فأنا في حاجة أيضا إلى أساليب جديدة. وقد تصادف هذه الأساليب من الرفض والمعارضة ما تصادفه الألفاظ المبتكرة ، فتستنكر حينا وترد حينا آخر . بيد أنا إذا كنا في حل من ابتكار اللفظ فلا غضاضة علينا في ابتكار الأسلوب ، مادام يلتقي مع الأوضاع العربية.
والفكر ، في خلقه وابتكاره ، في حركته وتنوعه ، يتطلب دون انقطاع من الألفاظ والأساليب ما يؤدي المعاني المختلفة والمتنوعة

وأخيرا إنانعيش فى عصر من أخص خصائصه محاولة الاقتصاد فى المجهود الجسمى والذهنى وذلك لتزاحم الأعمال وضيق الوقت ، وكلنا يود أن ينتج أكبر كمية ممكنة فى أقصر وقت ممكن . وأنفع الحقائق ما يمكن توصيله عن أيسر السبل وأقربها . وإذا كان العلم قد اتسع صبره قديما للدراسات الطويلة والمجلدات الضخمة ، فإنه يعنى اليوم بإحكام المعنى والمبنى . وإذا كان الأدب يباهى فيما مضى بالسجع والترادف والكناية والمجاز ، فإنه أضحى يحرص الحرص كله على السهولة والجزالة والدقة والوضوح

هذه هى روح العصر ، وتلك هى مقتضياته ، ولا سبيل للخروج عليها

ابراهيم بيومى مدكور

٢ ــ التعليم فى مصر

للأستاذ عبد الحميد فهمى مطر

من المسلم به أن المجتمع لا يستقيم أمره ولا يحيا الحياة الهادئة المطمئنة ولا يرق الرقى المنشود إلا إذا سادت بين أفراده فضائل معينة ؛ حددتها الأديان السماوية واجتمع عليها علماء الأخلاق .. كفضائل الصدق والأمانة والشجاعة والاستقامة ورعاية حقوق الغير والإيثار والتضحية الخ . وفى مثل هذا المجتمع الفاضل يقدر الأشخاص بأعمالهم ، فيعرف لكل ذى فضل فضله وينال المعتدى جزاء عدوانه ، وتتجلى فيه الرحمة فيعطف القوى على الضعيف ويبر الغنى الفقير ويرحم الكبير الصغير ويوقر الصغير الكبير . وكلما ازداد الناس إيمانا بهذه النواحى ازدادت المودة بينهم وازداد التعاون وقلت البغضاء وزال التشاحن ، وبذا تشيع المحبة والأخوة العامة بين الناس وتسود بينهم الطمأنينة وينتشر الأمن والسلام وهو أشرف ما تصبو إليه البشرية جميعها

ولقد أصبح هذا المجتمع الفاضل حلما من الأحلام فى هذه الأيام ؛ إذ لم يعد الناس فى مجتمعنا الحالى يقدرون تلك الفضائل بعد أن غمرتهم موجة المادية الجامحة المصحوبة بالأثرة وحب الذات والمتعة التى رمتنا بها المدنية الغربية ، فاستوى فى الأنانية والحرص على المادة ومجافاة الخير الكبير والصغير والغنى والفقير ، وأصبحنا نسمع أموراً كثيرة مستهجنة عن متعلمينا وخريجى جامعاتنا ومدارسنا لم يكن لنا بها عهد فى الماضى ، ولم يعرفها آباؤنا ولا أجدادنا منذ نصف قرن من الزمان . فلكم سمعنا فى السنين الأخيرة عن طبيب يعمل جادا لاستنزاف أموال مرضاه فقراء أو أغنياء قبل أن يعمل على استئصال أمراضهم ، والمريض المسكين الذى يرتمى فى أحضان طبيبه لينقذه مما يعانيه لا بد له أن يثق بهذا الطبيب وأن يصدق كل ما يقرره له ؛ باذلا كل ما فى وسعه لإرضائه علّه ينال الشفاء على يديه ، وكم تكون الصدمة قوية مدمرة إذا عرف أن طبيبه يطب لجيبه قبل أن يطب لإراحة هذا المسكين من علته ! وكم سمعنا عن محام احتال للحصول على المال بمختلف الحيل الشيطانية التى لا تقع تحت طائلة عقوبات قوانيننا الوضعية الناقصة . ناهيك بما يعمله لإغراء المتقاضين بعضهم ببعض ، وبث الفتنة خصوصا بين المتشاحنين من أفراد الأسرة الواحدة للدخول بهم فى قضايا يبتز فيها أموالهم . وكم سمعنا عن مهندس أو موظف كبير يأخذ الرشوة جهاراً نهارا ليغلب عطاء شركة على أخرى أو ليعمل عملا فى تغليب باطل على حق . وكم قرأنا فى الصحف والمجلات عن نكبات نزلت بالناس أو خسارات فادحة أصابت موارد الحكومة بسبب التزوير والاختلاسات ! ثم إن هذه النكبات الكثيرة التى تقع على رأس الشعب والحكومة نفسها لم تعد تقع من أفراد معدودين غير متعلمين كما كان الحال منذ نصف قرن من الزمان قبل تغلغل روح الفساد الغربى فى صفوفنا .. ولكنها مع الأسف تعددت وتكررت من كثيرين من متعلمى مدارسنا وجامعاتنا حتى أصبحت لا تطاق ولا تحتمل وأصبح العلاج عسيرا . ثم هو يزداد كل يوم عسرا على عسر كلما تراخينا فى وضع الخطة السليمة لإيقاف هذا التيار المزعج المدمر لحياة الأمة وكيانها . فبالله عليك كيف يطمئن الشعب على حقوقه وهذه حال متعلميه أو حاكميه ! وبالله عليك هل تجدى القوانين التى تقننها الدولة وتنشرها حبرا على ورق كل يوم لحفظ الحقوق بين الناس وصون العهود واحترام العقود مادام الكثيرون من المشرفين على تنفيذ تلك القوانين لا يأبهون بها .

ولا يرعونها إلا بقدر ما يملأون به بطونهم ويحشون به جيوبهم؟ وكيف يستطيع والحالة هذه معلم مهما كان قديرا أن يؤدى واجبه فى هذا المجتمع الفاسد؟ سيضطره مثل هذا المجتمع إلى أن يجاريه ليعيش فيصبح مثلا سيئا لتلاميذه مخالفة أعماله لأقواله، ومهما ألقى على تلاميذه من تعاليم ونصائح ومهما ذكر لهم من عظات وأمثال ومهما ذكرهم بقول العرب «تجوع الحرة ولا تأكل بثدييها» فإنهم سيتشككون فى تلك الأقوال والأمثال ولا يؤمنون بها ويستحلون لأنفسهم ما ينافيها، وسيضطر مثل هذا المجتمع المعلم إلى أن ينسى أو يتناسى كل ما حفظه فى كتبه وتلقاه على أساتذته عن نبذ الرذائل والتحلى بالفضائل، وسيعمل كما يعمل غيره مكرها أو راضيا وسط زوابع الغلاء المرير للحصول على المال الذى يقوم بأوده هو وأسرته من غير وجهه المشروع. وستكون تعاليمه لتلاميذه تعاليم فارغة تافهة لا روح فيها ولا جدية لأنها تصدر منه عن قلب غير مؤمن بها؛ فإذا طالبهم بالصدق فى القول والأمانة فى العمل شعر فى صميم قلبه بالرياء الذى قد يحز فى قلبه بادئ ذى بدء؛ ثم يصيره التكرار مع الأسف عادة فيه. وإذا طالبهم بالصراحة والشجاعة والمثابرة على العمل وإتقانه فى سبيل النجاح ناقض نفسه لأنه لم يعد يؤمن بأن هذه الفضائل توصل إلى النجاح، لأنه يرى بعينى رأسه ويسمع بأذنه كل يوم أن للنجاح فى الحياة سبيلا آخر غير سبيل التحلى بهذه الفضائل، ويحس التلاميذ الأبناء وهم مرهفو الحس أن أستاذهم رجل متناقض ويملأ الشك فيه نفوسهم، وهم إذ يحسون بذلك لا يفيدون منه ولا يجدون جدوى فى الاستماع إليه. ثم هم بعد ذلك يدخلون إلى الامتحان جهلاء خاوى الوفاض من كل شىء إلا من سلاح واحد مرن عليه الكثيرون وهو سلاح الغش الذى استشرى الآن بعد أن بدأ منذ سنين همسا فى الامتحانات العامة والخاصة فلم يعد يقاومه الآن من الممتحنين إلا القليلون الذين يعرضون أنفسهم من جراء ذلك للنكبات.. وكيف يبقى للأساتذة فى نفوس تلاميذهم بعد ذلك أية مكانة وقد عرفوا أنهم من جهة لا يفيدون منهم فى تلقى العلم إلا قليلا، وأن لديهم من جهة أخرى طرقا غير مشروعة تقودهم إلى النجاح المطلوب فى الامتحانات وسائر أمور الحياة! إنهم بعد هذا كله لا يستشعرون احتراما لمعاهدهم ولا لأساتذتهم. أليس هذا هو الحال فى معظم مدارسنا اليوم؟ أليس هذا هو الحال الذى يشكوه كل أستاذ وكل ناظر وكل عميد! يالها من غمرة ترتجف لها الأبدان وتنفطر لها القلوب؟ إنها غمرة الصلف والأنانية والمادية التى رمانا بها الغرب فكسحت أمامها كل فضيلة وأماتت الضمائر وأبادت كل خير! ثم ماذا يجدى تغيير نظم الامتحانات وجعل نقل التلاميذ من فرقة إلى فرقة أخرى فى ذمة المعلم بعد أن وضح أمامنا ما آل إليه المجتمع من فساد فى الذمم حتى كاد يكون من المستحيل على المعلم أن يجعل الذمة أساسا لحكمه على هؤلاء الأبناء المساكين! لقد دعونا إلى هذا التغيير فى نظم الامتحانات من زمن بعيد وفى مؤلفنا «التعليم والمتعطلون فى مصر» الذى صدر منذ ثلاثة عشر عاما؛ ولكن الحال الخلقية وقتذاك لم تكن تدهورت هذا التدهور، وكان هناك نوع من الحياء ومحاسبة الضمير. أما اليوم والحال أصبح كما وصفنا فإن الأمر لا يصح أن يقتصر على قوانين فقط تكتب على الورق ليكون تنفيذها هباء بل ليكون ضارا.. ولكن الأمر يتطلب علاجا حاسما ذا وجهين: وجه سريع يتعلق بالتلاميذ فيحال بينهم وبين الحزبية والمخربين وموظفى الدولة والرجال العاملين فيها فتنظف أداة الحكم ويحاسب كل منهم حسابا دقيقا على ما ارتكبوا وعلى ما جنوا على الأخلاق وبخاصة أولئك الذين مصوا دم الشعب وأثروا طفرة على حسابه. وفى تطبيق قانون الكسب غير المشروع الجزاء الأوفى إذا طبق تطبيقا عادلا نزيها — أما الوجه الثانى من العلاج فهو الذى تعتمد عليه الأمم فى تكوينها لأبنائها وناشئتها، وهو علاوة على ما يتطلبه من خطة حازمة وطيدة يتطلب كذلك أن يؤمن به الجميع وأن يتعاون عليه الجميع خصوصا بعد أن رأينا بأعيننا وسمعنا بآذاننا ما حل بنا.. وأن تتذرع به الحكومة وجميع الأحزاب والجماعات فى الإصلاح، وأن يراعى فيه وجه الله والوطن والمصلحة الآجلة قبل المصلحة العاجلة. ذلك هو تربية الناشئة تربية يجعلها تؤمن بالله وتخافه وتراقبه فى كل عمل من الأعمال، فيحاسب كل نفسه دائما واضعا نصب عينيه إرضاء وجه الحق والعدل والقانون دون أن يكون عليه رقيب غير الضمير الحى. هذه الخطة تحتاج إلى اقتناع وإيمان

وإلى فترة طويلة من الزمن وإلى انتحاء القادة والزعماء ناحية جديدة مستمدة من علوم الأخلاق؟ بل من وحي السماء بل من رب السموات والأرض الذي يعلم ما يصلح المجتمع وما يفسده «ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير». هذه الخطة التي تربي القلوب تربية تؤمن بربها وتخشاه كفيلة بأن تكون من ناشئتنا الأخلاق الفاضلة التي تسمو بنا عن كل الصغائر، وتدفع بنا سريعا نحو السمو ونحو المجد ونحو العزة؟ وهي لا شك ترضي ماضينا وحاضرنا ومستقبلنا — ألا هل بلغت اللهم فاشهد

عبد الحميد فهمي مطر

المسلمون بين الشرق والغرب
عند ظهور الإسلام

للأستاذ عبد المتعال الصعيدي

— ١ —

ظهر الإسلام والعالم منقسم إلى كتلتين كما ينقسم الآن، كتلة شرقية تقودها دولة الفرس من الأكاسرة، وكتلة غربية تقودها دولة الروم من القياصرة، والتاريخ يعيد نفسه، وقد وقع العرب بين هاتين الكتلتين فيما يقع فيه الآن أهل الشرق الأدنى بين الكتلة الشرقية بقيادة روسيا الشيوعية، والكتلة الغربية بقيادة أمريكا وإنجلترا، وكان كل من الكتلتين يقود فريقا من العرب إلى ما بينهما من حروب لا ناقة لهم فيها ولا جمل، بل كانوا هم الذين يغرمون دائما من أنفسهم وبلادهم، وكان الغنم لصاحب النصر من الفرس أو الروم

وكانت السياسة الخادعة المفرقة قد قسمت العرب إلى قسمين وأقامت فيهم دولتين: تقوم إحداهما بجانب الفرس، وهي دولة المناذرة بالعراق، وتقوم الثانية بجانب الروم، وهي دولة الغساسنة بالشام، وكان الفرس هم الذين يوجهون سياسة الدولة الأولى، كما كان الروم يوجهون سياسة الدولة الثانية، فإذا قامت حرب بين الفرس والروم كان المناذرة بجانب الفرس، وكان الغساسنة بجانب الروم، وقام فريق من القبائل العربية بجانب المناذرة، وقام فريق آخر منها بجانب الغساسنة، وقد انقسم العرب بهذا على أنفسهم، وقامت به حروب كثيرة بين المناذرة والغساسنة، وبين القبائل العربية بعضها وبعض، حتى ضعف شأن العرب بهذه الحروب، وكانت بلادهم تقع فريسة في أيدي الطامعين فيها بلدا بعد آخر

وكانت ببلاد العرب دولة كبيرة يلتف العرب جميعا حولها، وهي الدولة الحميرية باليمن، وكان كل من دولتي الفرس والروم لا يرتاح إلى وجودها ببلاد العرب، لأنها كانت تأبى أن تقف منهما موقف دولتي المناذرة والغساسنة، فيعمل كل من الروم والفرس على إضعافها والاستيلاء على بلادها، وكان أن سلط الروم دولة الحبشة على هذه الدولة، فاستولت عليها قبيل ظهور الإسلام. وحكمتها نحوا من سبعين سنة، حاولت خلالها أن تستولي على بلاد الحجاز وغيرها من بلاد العرب، ولما رأت أن الكعبة هي الرمز الديني الذي يجمعهم، قصدت مكة لتخريبها في وقعة الفيل المعروفة، وقد انتهت هذه الوقعة بهزيمتها على ما هو معروف في التاريخ، ثم كان أن قام سيف بن ذي يزن من بقايا الحميريين يحاول استعادة دولتهم، ولم ير وسيلة إلى هذا إلا أن يستعين بالفرس أعداء الحبشة والروم، فأمدوه بجيش أمكنه أن يخرج الحبشة من اليمن، وأن يقيم سيف بن ذي يزن ملكا على دولة آبائه، وكان لذلك رنة فرح في الحجاز وغيره من بلاد العرب، فأتت الوفود من هنا وهناك لتهنئته باستعادة ملك الحميريين وكان منها وفد الحجاز وعلى رأسه عبد المطلب بن هاشم جد النبي صلى الله عليه وسلم، ومن بين رجاله أمية بن أبي الصلت الثقفي الشاعر، فهنأه بقوله:

لا يطلب الثأر إلا كابن ذي يزن
في البحر خيم للأعداء أحوالا
أتى هرقل وقد شالت نعامته
فلم يجد عنده النصر الذي سالا
ثم انتحى نحو كسرى بعد عاشرة
من السنين يهين النفس والمالا

حتى أتى ببنى الأحرار يقدمهم
تخالهم فوق متن الأرض أجبالا

إلى أن قال :

فالقط من المسك إذ شالت نعامتهم
وأسبل اليوم فى برديك إسبالا
واشرب هنيئاً عليك التاج مرتفقاً
فى رأس غمدان داراً منك محلالا
تلك المكارم لا قعبان من لبن
شيبا بماء فعادا بعد أبوالا

ولكن كسرى الفرس لم يقدم هذه المساعدة لسيف بن ذى يزن خالصة لوجه الله تعالى ، بل كانت فى نظير خراج من اليمن يؤدى إليه كل سنة ، فكان سيف بن ذى يزن يؤديه إليه ، وكان جيش كسرى الذى أعاد إليه ملك اليمن يشاركه فى حكمه ، فلما توفى ضم الفرس إليهم ملك اليمن ، وصار الذى يتولى أمره واحد منهم ، ولم يستفد أهله من حركة سيف بن ذى يزن إلا أن استبدلوا ملك الفرس بملك الحبشة

فلما أتى الإسلام لم يرض أن يقف كما وقف العرب ذلك الموقف المعيب من تينك الكتلتين ، لأنه لا يليق أولا بالعرب كأمة يجب أن ترعى كرامتها ومصلحتها قبل غيرها ، ولا يصح أن تجعل فريقاً منها ذيلا لدولة الروم ، وفريقاً آخر ذيلا لدولة الفرس فينقسم بعضهم على بعض فى حروب لا ناقة لهم فيها ولا جمل . ثم لا يليق ثانياً بدين أتى للسلام والتعارف وهداية الناس كافة أن يشترك فى هذه الحروب المفرقة الآثمة ، لأنها لم تكن قائمة لغرض شريف ، وإنما كان يقصد منها توسيع السلطان ، وبسط سيادة الأقوياء على الضعفاء ، ليعظم الخراج الذى يجبونه منهم ، ويتوسعوا فى الترف الذى ينفق فيه ذلك الخراج ، فيزداد الأقوياء غنى وطغياناً ، ويزداد الفقراء فقراً ومذلة

فآثر الإسلام أن يقف موقف الحياد من تينك الكتلتين ، لا يهمه إلا غايته الشريفة التى يسمى إليها ، ولا ينظر إليهما إلا فى حدود هذه الغاية ، وفى حدودها كان حياده فيه شئ من العطف نحو دولة الروم ، لأنها لم تكن حينئذ تملك إلا قليلا من بلاد العرب ، وكانت بلاد الشام التى تقوم فيها دولة الغساسنة لا تعد من بلاد العرب فى ذلك الوقت إلا على نحو التجوز ، أما دولة الفرس فإنها كانت متسلطة على كثير من بلاد العرب ، ولم يكن خالصاً من سلطانها إلا بلاد الحجاز ونجد ، وكان الإسلام يرى أنه سيقوم أولا على أكتاف العرب ، لنشأته بينهم ، فلم يرتح لاستيلاء الفرس على هذه البلاد التى يعدها وطنه الأول ، وهذا إلى أن الروم كانوا أهل كتاب ، فكانوا أقرب فى العقيدة إلى الإسلام من الفرس

وكان من مظاهر عطف الإسلام على دولة الروم أن حزن المسلمون وهم بمكة قبل الهجرة على غلبة الفرس لهم ، حتى نزل فى هذا قرآن يعدهم بنصر الروم على الفرس ، وذلك قوله تعالى فى أول سورة الروم

« ألم ، غلبت الروم فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون ، فى بضع سنين، لله الأمر من قبل ومن بعد ، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ، ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم »

وقد مكن ذلك موقف الإسلام من تينك الكتلتين إلى أن صار له شئ من القوة بالمدينة ، ورأى أن يدعو رؤساء تينك الكتلتين إلى أمر يجتمع عليه كلهم ، وتبطل به هذه الحروب بينهم ، فيسود السلام بين الشعوب البشرية ، وتقوم بينهم علائق الصفاء والمودة ، ولا يكون هناك أقوياء يتحكمون فى الضعفاء ، ولا أغنياء مترفون ، وفقراء مدقعون ، بل يعيش الضعفاء بجانب الأقوياء ولهم مثل حقوقهم ، ويعيش الفقراء بجانب الأغنياء قريباً من عيشهم ، حتى لا يكون هناك فارق كبير بين هذه الطبقات ، ولا يعيش الأقوياء والأغنياء فى نعيم وترف ، والضعفاء والفقراء فى حرمان وبؤس

وقد وقف الإسلام بهذا موقفاً كريماً بين تينك الكتلتين ، ولكنه لم ينل منهما ما يليق به من التقدير ، فأغضبت كسرى الدعوة التى وجهت إليه ، وبعث إلى عامله باليمن يأمره بقتل النبى صلى الله عليه وسلم ، وكذلك كان شأن الدعوة التى أرسلت إلى رؤساء الكتلة الرومية ، ثم كان أن جر كل من الكتلتين الإسلام إلى حروب لم يكن يريدها مع أن الظفر كان فيها له؛ وكان من خير الإنسانية أن يجيباه إلى إبطال هذه الحروب ، ولو أنهما أجاباه إلى هذا لكان للعالم اليوم شأن عظيم غير هذا الشأن

للكلام صلة

عبد المتعال الصعيدى

رد على رد :

أجل .. ذو العقل يشقى !

للاستاذ محمد رجب البيومي

حين يكتب القارئ نقداً لمقال قرأه ، يود من أعماق نفسه أن يصل إلى الحقيقة على ضوء ما يعقب المقال من حوار وحديث ، وواجب المنقود أن يواجه الحقائق سافرة واضحة ، ثم يجيب عنها واحدة واحدة ، إذ أن القراء يتتبعون النقاش فقرة فقرة ، ويوازنون بين الطيب والخبيث فى دقة بالغة ، ويصدرون الرأى عن ثقة واقتناع

وقد ناقشت الأستاذ شاكر بما لا أستطيع أن أحيد عنه من الأدب والذوق ، راجياً أن أجد لديه الإجابة الشافية المقنعة ، فماذا وجدت ؟ ! وجدت أن الأستاذ المهذب قد خصنى بكثير من الزراية والجهل ، وقلة المعرفة ، وضعف المنطق ، وسوء الأدب ، وليته وقف عندى بشتائمه وسبابه ، بل انتقل إلى الأستاذ الكبير سيد قطب ، فرماه ظالماً بسوء الفهم ، وولج إلى ضميره ، فاتهمه بقبح القصد ، وخبث الطوية ، ومعاندة الحق لهوى فى النفوس يعلمه الله ، وبالحرص على تتبع المثالب القبيحة ، واجتناب المناقب الفاضلة ، وبالغلو الأرعن فى سياق المثالب وتفسيرها ، ثم ينضح إناؤه بهذه التهم الجاحدة ملقياً بها فى عنف وحدة ، إلى قراء الرسالة ، وهم جميعاً يعرفون فضائل قطب فأين ذهبت عنه الحصافة والاتزان ؟

وقد حاولت أن أجد لدى الأستاذ فى رده الطويل العريض شيئاً يقنع المنصفين ، فما وجدت غير التنقص والسباب ! ! وقد دعوته فى مقالى السالف إلى هجر الوعظ والإرشاد فى الجدل العلمى ، فصاح يقول على رؤوس الأشهاد « من المسير ان أكتب فى هذا الموضوع دون أن أتوشح بذيل من ذيول الوعظ والإرشاد » ، واندفع مع ذيوله الضافية إلى أبعد مدى وأقصاه ، وهكذا ضاعت الحقائق التاريخية لدى كاتب يزهى بنفسه ، فيقول إنه (يعرف حق الكلام ، ويلتزم مقاطعه ومطالعه وحـدوده ، وإن للعقل شرفاً لا يرضى معه بالتدهور فى مواطىء الغفلة وسوء الأدب والخوض فى العبث والجهالات)

ولا أريد أن أكيل للأستاذ صاعاً بصاع ، ضنا بكرامتى ، ولكنى أحاول أن أجمع من مقاله العريض فقرات مبعثرة مضطربة فى أنحائه ، ساقها مساقاً مهلهلا لا يعرف الدقة والحدود ! لأستطيع دحضها بالرأى الوجيز الصريح ، جزعاً على الحقيقة العلمية من الغرق فى إطناب المنابر وإسهاب الخطباء

لقد سطر الكاتب خمسين سطراً من مقاله تبدأ من قوله « دعنى أيها السيد أعيد عليك ، إلى قوله خالصة من قلبى بلا مسوح وعظ وإرشاد » ! سطر هذه السطور ليقول « إن أخبار معاوية وعلى جاءت عن طريق الرواية فحسب ، ولكلا الرجلين شيعته التى تنسج الحوادث وتلفق الأخبار » وقد كنت أقرأ سطوره الطويلة وأنا أسأل نفسى أذلك نقاش أم مجرد كلام ؟ ولو كانت النتيجة التى وصل إليها الكاتب صحيحة لعذرناه وسكتنا عنه ، ولكنها باطلة كل البطلان ، ولو جاز للإنسان أن يأخذ بها فى شىء لمزقنا جميع صحف التاريخ الإسلامى من أول عام فى حياته إلى مائة عام أتت عليه ، فلا نتكلم عن أبى بكر وعمر وعلى ومعاوية ويزيد والحسين وعمر بن عبد العزيز ! ! حتى يعرف الأستاذ شاكر ، اسم الراوى وأباه وأمه ، ولحسن الحظ أن كتاب التاريخ ورواته لم يستمعوا لهذه الضجة ، وقدموا إلينا مدداً وفيراً من الأحداث التاريخية ! ! لم تسجل حوادث معاوية وأضرابه عند مؤرخ واحد حتى يتهمه الأستاذ بالافتراء والهوى ، ولكنها أنباء متواترة ، رواها جميع المؤرخين دون استثناء ، ولو أن شيعة على وحدهم الذين اختلقوا مثالب معاوية ، لسكت عنها بعض المؤرخين ؟ ولكن هيهات هيهات !

فهل وجد من المؤرخين من أنكر أن معاوية قد أحال الخلافة إلى ملك عضوض مخالفاً بذلك تعاليم الإسلام ؟ وهل وجد من المؤرخين من أنكر أن يزيد بن معاوية قد فرضه أبوه مدفوعاً إلى ذلك بدافع لا يعرفه الإسلام ؟ وهل وجد من المؤرخين من أنكر أن معاوية قد جعل جزءا من بيت المال الرشوة وشراء

الضمائر في بيعة يزيد »

لم يوجد من أنكر ذلك من المؤرخين ، ولكن الأستاذ شاكر ينكره ويدعي أن المؤمنين قبله قد أنكروه ، وهو بحمد الله لم يكن مؤرخا ، ولا نعلم أنه خط كتابا في التاريخ ، فلم ينسب نفسه إلى قوم ليس منهم ؟

ويدعي الأستاذ أنه لم يفهم شيئا مما كتبته في تحديد معنى الصحابي ، فإذا وجدني أستدل بحديث الرسول عن عبد الله بن أبي لجأ إلى مخرج ينقذه مما واجهته به فذكر أن الرسول قال معاذ الله أن يتحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه ، خشية أن تدور على ألسنة المشركين الذين لا يميزون مؤمنا عن منافق ، وكلهم عندهم من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم !! وأنا أقول للأستاذ إن المشركين كانوا يميزون المؤمن عن المنافق ، ويعرفون نفاق ابن أبي كما يعرفه المؤمنون سواء بسواء ، بل إنه تماهد معهم على التنكيل بالدعوة المحمدية ولمسوا من نفاقه ما شجعهم على التعاون معه ، وكان إذا خلا إليهم يقول « إنا معكم إنما نحن مستهزئون » فليس هناك مشركون لا يميزون مؤمنا عن منافق ، وعلى الأستاذ أن يبحث له عن مخرج آخر ، لو يستطيع !!

وإذا كان الأستاذ يصمني بالجهل وسوء الفهم وقلة المعرفة ، ثم ينقل فقرات طويلة من مقاله ليبين لقراء الرسالة حقيقة ما قال ، ومن هذه الفقرات قوله « فإذا أخطأ أحدهم فليس يحل لهم ولا لأحد من بعدهم أن يجعل الخطأ ذريعة إلى سبهم والطعن عليهم » إذا كان الأستاذ ينقل ذلك ، فلم لم يجب عما وجهته إليه بشأن هذه الفقرة ، فقد قلت إن الصحابة قد طعن بعضهم بعضا واستباحوا ما حرمه عليهم ، أفيكونون بذلك قد خرجوا عن منهج الإسلام ، أم أن الأستاذ شاكر يرسل كلامه في الهواء فإذا ناقشه كاتب متواضع مثلي لجأ إلى الشتائم والسباب !!

ولقد دعوت الأستاذ إلى النقد الموضوعي فقال في الرد على ذلك « إن النقد الموضوعي ينبغي أن يسبقه التحقق من صحة هذه الحوادث تحققا ينفي كل ظنة » وأنا أقول له مادمت تنكر هذه الأحداث المتواترة لدى المؤرخين ، فلن تقدم للقارئ ما يقنعه ويشفيه ، وأنا أعلم أن الطعن في رواية الآثار الفردية سائغ ومقبول ، أما الوقوف في وجه التاريخ وتفنيد ما أجمع عليه المؤرخون بلا دليل ، فلم يجد من يصغي إليه في كثير أو قليل

ولقد نصحني الأستاذ شاكر أن أضع من يدي عبء القلم ، فإنه ثقيل ثقيل ، وذكر أن الحياء يمنعه أن يترك كلامي بلا مجيب !! وأنا أعجب للحياء الذي يمنع صاحبه من الصمت المريح ، ثم يدفعه إلى السب القذع والطعن الجارح في كاتب كبير كالأستاذ سيد قطب !! فضلا عما وجهه إلى من قذائف طائشة ، ثم ما الفرق بيني وبينه حتى يطلب إلى أن أكف عن الكتابة ، وما هي مؤلفاته التي تبيح له أن يتقدم إلى بمثل هذا الأمر ، لأحفظ له حقه في الإرشاد والتوجيه ؟! أخشى أن يكون استياؤه المفزع من نشاط الأستاذ قطب وإنتاجه قد دفعه إلى الهجوم على بألفاظه الحداد !! وإني لأستغفر الله له رغم ما أصابني من كلوم !!

(أبو تيج) **محمد رجب البيومي**

دفاع عن العباسة

للأستاذ ثروت أباظة

كتب الأستاذ باش أعيان مقالا قيما فى الدفاع عن العباسة بنت المهدى ، ولقد أثار مقاله هذا فى نفسى فكرة كانت ما تزال تردد بها ، وكنت ما أزال أفكر فى الكتابة عنها حتى قرأت هذا المقال ، فوجدت الفرصة قد دعتنى إلى الكتابة . فالأستاذ باش أعيان نقل إلينا مجملا من أقوال المؤرخين عن سبب نكبة البرامكة ، ونقل إلينا أيضاً مجملا من آرائهم فى مسألة زواج جعفر من العباسة ، وهناك أمران فى هذا الشأن لا بد من تقريرهما .

فإن المؤرخين قد أجمعوا على اختلاف فى أسباب نكبة البرامكة والاختلاف بينهم دليل قاطع على الجهل بحقيقة نكبة البرامكة ، والذى نستطيع أن نخلص به من هذا الاختلاف هو أن نكبة البرامكة التى حدثت إنما هى الحركة الظاهرة مما كان يعتمل فى نفس الرشيد ... فكل حركة تحدث من الإنسان كبيرة كانت أو صغيرة تشتمل فى الواقع على عاملين : العامل الظاهر وهو الذى يظهر إلى النور ، ويكون الواقعة ، والعامل النفسى وهو المختفى فى أغوار النفس لا يظهر . ولقد أراح الأستاذ باش أعيان نفسه وأراحنا حينما ذكر لنا ذلك الحديث بين الرشيد وأخته علية وهو يقول لها إن قميصه الذى يرتديه لو علم السبب فى قتل جعفر لمزقه

فليكن جعفر إذاً أخا الرشيد فى الرضاعة ، وليكن رفيقه فى اللعب ، وليكن صديقه فى الشباب ، وليكن وزيره فى الملك . ليكن أيا من هذه الصفات ، أو ليكن جميعها ؛ إنما الواقع من الأمر أنه قتله ... لماذا قتله ..؟! لا يستطيع أحد أن يعرف ، بل إنى لأشك كثيراً فيما إذا كان الرشيد نفسه يعرف .. فلكم تخادع نفسها نفسه ، ولعل الرشيد أوجد سبباً فى نفسه يطمئنها به إلى عدله إن هو قتل جعفر .. لعله أوجد هذا السبب فى ظاهر نفسه ، بينما أوغل السبب الحقيقى فى الاستخفاء بين أطواء النفس بعيداً عن كل مظنة .. بعيداً عن تفكير الرشيد ذاته ، فلو أن الله جل وعلا بعث الحياة اليوم فى الرشيد ، ونفض عنه غبار القبر والسنين ، واستطعنا نحن أن نسأله السبب فى قتاله .. لو حدث هذا فإننا نستطيع على رغم كل ما حدث أن نتشكك فيما يقول .

وإن هذا الاختلاف بين المؤرخين أمر مجيب فى ذاته ، فإن أسبابهم جيعاً لا تعارض بينها ، فإذا وجد واحد منهم ، فهو لا يمنع وجود الأسباب الأخرى .. فما ضر لو كانت هذه الأسباب مجتمعة هى الأصل فى نكبة البرامكة بجانب السبب الحقيقى فى نفس الرشيد .. وما ضر أيضاً لو كانت هى مجتمعة سبب النكبة ، وليس هناك سبب آخر إلى جانبها .

من هذه الأسباب فى قول بعض المؤرخين أن الرشيد أبى على جعفر أن يتزوج العباسة زواجاً كاملا ، وأحل له بعقد الزواج النظر وحده ، دون ما يستتبع العقد من صلات .. ويقول هؤلاء المؤرخون إن العباسة لم تعبأ بما نص عليه عقد الرشيد وأكملت مقتضيات العقد مع زوجها ، فكان ثمرة هذا الإكمال هو بضع بنين لهم .

وقد رأى الأستاذ باش أعيان أن فى هذه الرواية تعدياً على مقام العباسة بنت المهدى ، المتصلة بأسباب غاية فى القوة إلى العباس عم النبى عليه الصلاة والسلام ، وأنا لا أدرى علام يدافع؟ وما الذى فعلته حتى تتهم ؟ إن العقد الذى أراد أخوها أن يكون عقد نظر فحسب غير موجود بين عقود الشريعة الغراء ، وإنما هو عقد زواج ، ومعروف شرعاً أن الشرط الفاسد فى عقد الزواج لا يفسد العقد ، بمعنى أن الشرط يبطل ويصح العقد ، فإذا تزوجت إحداهن واشترطت فى عقد الزواج ألا تقيم مع زوجها إلا إذا أقام ببغداد مثلا أو البصرة ، فإن عقد الزواج صحيح والشرط باطل ، فإذا انتقل الزوج إلى القاهرة تعين على الزوجة أن ترافقه إليها ، وتعيش معه فيها . وتعاشره زوجة بعقد

صحيح، ولا قيمة للشرط الذى اشترطته بل هو باطل غير موجود، فإذا اشترط الرشيد على جعفر فى عقد النكاح ألا يدخل بزوجه العباسة بطل الشرط وصح العقد. والعباسة لا بد تعلم هذه الحقيقة، وهى على الأقل لن تعدم من يخبرها بها. فإن هى أبطلت الشرط فإنما تسير على خطى الدين الحنيف، غير مجانبة الخلق القويم الذى يجب أن تكون عليه بنت قريش، ولا ضير عليها إن هي أغضبت الرشيد لترضى الله

وبعد فالعباسة غير متهمة لتحتاج إلى دفاع، بل لقد كانت فى موقف لا بأس بها فيه، وهي تأبى على أخيها الرشيد أن يحرم ما أحل الله أو يحل ما حرمه

تلك هى العباسة على رواية المؤرخين الذين يقولون بوجود العقد، أما هؤلاء القلة الذين يقولون بعدم وجود العقد فقولهم مردود هزيل، فما كان أيسر انعقاد العقد فى هاته الأيام بحيث يصبح عدم العقد ضرباً من الجنون الذى لم يعرفه أحد عن جعفر أو العباسة، ما كان أيسر على العباسة أن تشهد اثنين من المخلصين لها أو لجعفر على أنها زوجته نفسها، فترتفع بذلك عما يريد هؤلاء المؤرخون أن يرموها به

فإذا كانت المسألة كلها مختلقة، ولا صلة للعباسة بنكبة البرامكة فهى — من باب أولى — فى غنى عن كل هذا الكلام

بقى أمر أحب أن أتحدث عنه قليلا فى هذه المناسبة. فقد ذكر الأستاذ باش أعيان أن بعض المؤلفين المعاصرين قد أنشأوا الفصول الرائعة عن حب جعفر للعباسة، واتخذوه موضوعاً لرواياتهم، وإننى لست أرى بأساً من ذلك أبداً، فإن المؤلف الفنان غير مقيد مطلقاً بالتاريخ، وإنما شأنه وشأن التاريخ شأن المهندس والمولد الكهربائى، فالمهندس يستنبط القوة الكهربائية ثم هو بعد ذلك على أتم الحرية.. يضيء بها أو يحرك الآلات، أو يفعل ما شاء له هواه دون أن يقطعها

والفنان إزاء التاريخ تستلهم منه الوحى، كأنه الشرارة من المولد الكهربائى، ثم هو يحور قصته أو روايته، ويوجهها إلى حيث يرضى فنه، دون أن يخل بالحوادث الجوهرية، التى تقوى على الإهمال أو التحريف

فلتكن رواية العقد بين جعفر والعباسة مختلقة، أو لتكن منحرفة، أو لتكن كما تشاء، فالفنان قد رأى فيها موضوعاً يصلح لأن ينشئ منه فنا فأنشأ ولا جناح عليه

وإذا أراد المتزمتون من المؤرخين ألا يعترفوا بهذا فعليهم أن ينظروا إلى العمل الفنى على أنه عمل فنى فحسب، اختير لأسماء أبطاله أسماء كان لهم فى التاريخ شأن

وبعد فإلى الأستاذ باش أعيان خالص الشكر أن أتاح لى هذه الفرصة، وإليه فى حاضرة الإسلام الزدهر خالص التحية

ثروت أباظة

دعوة محمد

لتوماس كارليل

للأستاذ عبد الموجود عبد الحافظ

الإخلاص والصدق في دعوة محمد

إن البغض والحسد والحقد والموجدة طبيعة من طبائع البشر، وخاصة إذا غزاها التعصب الأعمى، فإذا قام إنسان ما بعمل جليل، عمت فائدته على بعض الناس وشملت من حوله، كثر حساده وشانئوه، فتراهم يهبون والحقد يملأ نفوسهم والبغض يكاد يمزق صدورهم، محاولين الانتقاص من قدر عمل هذا العظيم، هذا بالنسبة لمن يقوم بعمل نافع في حدود بيئته، فما بالك برجل، كمحمد جاء بما فيه خير البشرية جمعاء وصلاح الكون كله، وقد بلغ من المرتبة والرفعة في نفوس مئات الملايين من الناس ما لم يبلغه أي إنسان مهما كانت أعماله. فليس عجيباً أن نرى الكثيرين ممن أعماهم التعصب وملأهم الحقد، يحاولون النيل من محمد ومما جاء به، ولو عقلوا لأراحوا أنفسهم وأراحوا غيرهم من جمجمتهم وصخبهم، لأنهم كالرجل الذي ينطح الصخرة محاولا تحطيمها فإنه سيرتد وقد أدميت قرونه

فالمتعصبون من النصارى والملحدون. يسيئهم أن يعرف الناس حقيقة دعوة محمد. فيذيعون أن محمداً لم يكن يبغي من قيامه بهذه الدعوة إلا الشهرة والنفعة الشخصية والفاخرة بالجاه والسلطان وإشباع نزعة حب السيطرة الذي يملأ نفسه، وقد وغلوا في عرض هذا الرجل ودعوته بما لا يصدقه عقل، ويستحي أحط الناس قدراً أن يذكروه على ألسنتهم. وهم يعلمون أنهم كاذبون مدعون.

إن محمداً لم يكن يريد مفاخر الجاه والسلطان والشهرة والسيطرة، كلا وايم الله، فلقد كان في قلب ذلك الرجل العظيم ذي النفس المعلئة خيراً ورحمة وبرا وحنانا، ذي العقل المتميز بالحكمة والإربة والنهي والحجي، أفكار أسمى من الطمع الدنيوي الذي يستوي بنو البشر الآخرين في الدرجة سعياً له، ونوايا أشرف من السعي في طلب السلطة والجاه ... ، لم يفكر يوماً أن يكون كما يتمنى كل إنسان، ولو أنه أراد الملك لناله، ولو سعى وراء المال لملأ منه خزائن كثيرة، ولو ابتغى السيادة لكان ما أسهلها عليه، ولو أراد أن يجمع بين كل هؤلاء جميعاً لما استعصى عليه الأمر. ولكن كيف يكون ذلك وهو ذو النفس الكبيرة التي كان كل همها إسعاد البشرية وإنقاذها مما هي فيه، إننا لا يمكن أن نتهمه بعدم الإخلاص لدعوته، لأنه من الذين لا يمكنهم إلا أن يكونوا مخلصين جادين فيما يعملون، ولولا ذلك لما نجحت دعوته، لأن الإخلاص هو أساس كل نجاح. فبينما نرى الآخرين الذين يبتغون عرض الحياة الدنيا يرضون بالإصلاحات الكاذبة ويسيرون خلف الاعتبارات الباطلة، نرى محمداً يأبى أن يستمين بمألوف الأكاذيب ويتوشح بما كان متبعاً في زمانه من الخرافات والأباطيل، فقد كان منفرداً بنفسه العظيمة مقتنعاً بحقائق الأمور، متفكراً في أسرار الكائنات، بل كان سر الوجود يسطع لعينيه — كما قلت — بمخاوفه وأهواله ومباهجه وزخارفه، فلم يستطع شيء من الأباطيل أن يحجب عنه كل ذلك، وكأني بلسان ذلك السر الهائل يناجيه في خلواته « ها أنذا ». إن هذا الإخلاص في الدعوة والتفاني في القيام بها لا يخلو من معنى إلهي مقدس، وما كلمات محمد التي كان ينطق بها، إلا صوت خارج من صميم قلب الطبيعة وصميم الواقع، كان إذا تكلم فكل الآذان برغمها صاغية، وكل القلوب خاشعة واعية، وكل كلام بعد ذلك غير كلامه هباء، وكل قول سوى قوله جفاء.

لقد ظل منذ أيام أسفاره ورحلاته إلى بلاد الشام، تجول بخاطره آلاف من الأفكار التي لا يمكن أن تأتي إلا لكل ذي عقل راجح ونظر ثاقب. من أنا؟ وماذا أكون؟ ما هي الحياة وما قيمتها؟ وما هو الموت وماذا سيكون بعده، وماذا أعتقد وماذا أفعل؟ وهل أعبد ما يعبد هؤلاء القوم من أصنام وأوثان لا تنفع ولا تضر؟. كل هذه الأسئلة والخواطر كانت تجول بفكره في خلواته، فهل أجابته عنها صخور جبل حراء أو ما يحيط به من الفلوات والقفار، أو ما كان يمر به من شماريخ

طود الطور . كلا لم يجبه شيء من ذلك حتى ولا قبة الفلك الدوار ، أو تعاقب الليل والنهار ، ولا النجوم الزاهرة ، ولا الكواكب الظاهرة، ولا الأنواء الماطرة . لم يتلق جواباً من كل هذه الأشياء ولا من واحد منها . ولكن سرعان ماجاءه الجواب شافياً مبيناً منقذاً له من حيرته واضطرابه ، في خطاب الله العلي القدير لنبيه موسى : « إنني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني وأقم الصلاة لذكرى ، إن الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى . فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها واتبع هواه فتردى » . إنه جواب لا لبس فيه ولا غموض ، وإنه السر الذي أودعه الله روح محمد ، فنزل برداً وسلاماً على روحه

والذي يجب على كل إنسان أن يسأل نفسه عنه هو ما كان يجول بخاطر محمد ، وما أحسه في نفسه ذلك الرجل القفري . إن هذه هي المسألة الكبرى والأمر الأهم — الذي يجب على كل إنسان أن يضمه في الرتبة الأولى من تفكيره إذ أن كل شيء بجانبها عديم الأهمية

إن هذه المسألة لو بحثنا عنها في فرق اليونان الجدلية أو نقبنا عنها في روايات اليهود المبهمة أو فتشنا عنها في نظام وثنية العرب الفاسدة فإننا لن نجد لها جواباً شافياً . وأما فيما جاء به محمد فإن الجواب يطالعنا في كل مكان سواء في القرآن أو في أقوال محمد نفسه الذي لا ينطق عن الهوى ، وهذا دليل على أهميتها وخطرها

لقد سبق لي أن قلت إن أهم ما يميز الباطل وأولى خصائصه ، هي نظره خلال ظواهر الأمور إلى بواطنها ، وأنه يقيس الباطن على الظاهر . أما الاعتبارات والإصلاحات والعادات والاستعمالات فإنه لا ينظر إليها سواء أكانت جيدة أم رديئة ، حقة كانت أم باطلة . لقد كان محمد ينظر إلى الأوثان التي يعبدها قومه ويقول في نفسه : إن هذه المعبودات لا بد أن يكون وراءها شيء . وما هي إلا رمز وإشارة لمعبود أعظم ، ولكن القوم ضلوا السبيل إليه ، وإلا كانت زوراً وباطلا وقطعاً من الخشب لا تضر ولا تنفع ، وهذا أكبر شاهد على إخلاص محمد لقومه فهو يريد أن ينقذهم مما هم فيه من ظلمة واضطراب ، ولكنهم لجوا في بادىء أمرهم وعتوا عتواً كبيراً

* * *

لو كان محمد يريد الجاه والسلطان لما استطاع أن ينقذ هؤلاء العرب الجفاة ولا قدر على تحطيم معبوداتهم . لقد اتهموه بأبشع التهم ولصقوا به أحط الصفات . فقالوا إنه ساحر كذاب « وعجبوا أن جاءهم منذر منهم فقال الكافرون هذا ساحر كذاب . أجعل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشيء عجاب . وانطلق الملأ منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم إن هذا لشيء يراد . ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة إن هذا إلا اختلاق » وقالوا إنه شاعر مجنون « إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون ويقولون أئنا لتاركو آلهتنا لشاعر مجنون » ثم دعوه إلى عبادتها وترك دعوته مرغبين ، ثم مغرين ، ثم حرموه وأهله وعشيرته مصاهرتهم والعمل معهم ، وحرموا على العرب التقرب منهم حتى كادوا يهلكون، ثم هددوه بالقتل إن هو لم يثب إلى رشده ويرجع عما هو فيه من تحقير آلهتهم والنيل من معبوداتهم ...

ولكن ما لمحمد وهذه المعبودات ، وأنى تؤثر في نفسه هذه الأوثان ولو أنها رصعت بالشهب لا بالذهب ، وكيف يسيغ له عقله أن يعبد هذه الأصنام ولو عبدها الحجاج من عدنان والأقيال من حمير ، وأي خير يرجوه منها ولو عبدها الناس جميعاً ؟

لقد عاش محمد حياته الأولى بين قومه رائحاً غادياً ولكنه كان في الحقيقة يعيش في واد من التفكير المنظم والنظر الثاقب ، وقومه كلهم في واديهم يعمهون وفي ضلالاتهم سادرون وعن الحق مبتعدون ، عاش ماثلا بين يدي ربه ، سابحة أفكاره في ملكوت السموات والأرض ، فلما سطعت لعينه الحقيقة الكبرى وجاءه الناموس الأعظم وانشرح صدره وزالت كربة نفسه . ما كان له إلا أن يجيبها ، وإلا فقد حبط سعيه وضاع جهده وأصبح هو وقومه سواء بسواء

فقال لنفسه : فلتجبها يا محمد ، أجب وإلا كنت من الخاسرين .. أجب فقد وجدت الجواب الذي حيرك طوال هذه الأعوام ..

أفبعد هـذا يزعم الـكاذبون الحاسدون أن الذى أقام محمداً وأثاره هو الطمع وحب الدنيا والرغبة فى الجاه والسلطان ، حق وايم الله وهوس وسخافة ، وظلم بين وإجحاف للحق وتضليل للحقائق . ليقل لى هؤلاء الطاعنون ، أى فائدة لرجل مثل محمد فى جميع بلاد العرب من أقصاها إلى أقصاها ، وأى خير له فى تاج كسرى وصولجان قيصر . بل أى قيمة عنده لجميع ما بالأرض من تيجان وعروش ؟! لأنه يعرف المصير الأخير لجميع الممالك والتيجان .. وأين تصير الدول جميعها بعد حين من الزمان « كل من عليها فان » . أيطمع فى مشيخة مكة وقضيبها ذا الطرف المفضض .. أم فى ملك كسرى وتاجه ذى الذؤابة الذهبية .. أم فى صولجان قيصر وعزة ملكه ؟ وهل فى كل هـذا منجاة للمرء من هول يوم الحساب إن لم يكن له من عمله منجاة ومظفرة . كلا . إذن ما علينا إلا أن نضرب برأى هؤلاء الجائرين القائلين إن محمداً كاذب لا يبغى من دعوته إلا السلطان والجاه ، عرض الحائط ، فإن مذهبهم عار وسبة على البشرية فلقد أصبح من أكبر العار على أى إنسان متمدين من أبناء هذا العصر أن يصغى إلى ما يشاع من أقوال مفتراة وأكاذيب ملفقة عن دين الإسلام وأنه كذب ، وأن محمداً رجل خداع مزور شهوانى فاسد . بل أصبح من أوجب الواجبات علينا أن نحارب كل من يحاول أن يلصق هـذه التهم وأمثالها بمحمد ودعوته إن كنا نريد للحق أن ينتصر وللعالم أن يسير نحو سلام دائم وحياة لا اضطراب فيها ولا فتن ، لقد آن لنا أن نقول لهؤلاء الذين يشيعون مثل هذه الأقوال السخيفة المخجلة ، إنكم أنتم الكاذبون الخداعون . إنكم أنتم الذين تريدون أن تشيعوا فى العالم الفوضى والاضطراب وتحاولوا الوصول إلى الجاه والسلطان عن طريق الطعن فى الحق وأصحابه والجور فى القصد ، لا عن طريق هداية العالم إلى الخير والسلام كما فعل محمد ، ولكن ما أبعد الفرق بينه وبينكم فإن الرسالة التى جاء بها محمد ما زالت السراج الوهاج والطريق السوى لمن أراد أن يصل إلى نعيم الحياة ويفوز بجنات عرضها السموات والأرض ، وما زالت قبلة الأنظار مدة اثنى عشر قرناً لأكثر من مائتى مليون من الناس أمثالنا خلقهم الله الذى خلقنا وجعل لهم عقولا كما جعل لنا ، وفيهم من بلغ أسمى درجات الرقى الفكرى الذى تدعون أنكم وصلتم إليه ، فلا تستحون من قولكم ، إن هذه الرسالة التى آمن بها ومات عليها كل هؤلاء الملايين الفائقة الحصر ، خدعة وكذب . فوا أسفاه ما أحقر هذا الزعم الباطل وأسوأ هـذا القول السخيف ، وما أضعف عقول أهله وأحقهم بالرثاء والمرحمة ، لأنهم ظنوا أن جميع الناس مجانين مثلهم . أما أنا فلا أستطيع أن أرى هـذا الرأى أبداً ولا أسكت عن قائليه ، ولو أنى أرى أن الغش والكذب ينتشران بشكل مريع بين الناس ويروجان رواجاً كبيراً ويصادفان كثيراً من التصديق والقبول

إن الحق إذا لم يجد له نصيرا يدفع عنه سخف القول ويذود عن حوضه المفتريات لضاع بين أمثال هؤلاء الذين لا يرعون فيه إلا ولا ذمة . ولو أن الحق عدم أنصاره لأصبحت الحياة سخفا وعبثا ، وكان الأولى بها ألا تخلق . وأى حق أحق منا بالذود والدفاع عنه من دعوة محمد التى تدعو إلى السلام والمحبة . وهما اللذان جاء بهما جميع الأنبياء لأنهما ظل الله فى الأرض وما الله إلا محبة وسلام

* * *

إن من أراد أن يبلغ منزلة ما فى علوم الكائنات ، يجب عليه ألا ينظر إلى شئ مما يقوله أولئك السفهاء ، وألا يصدق كلمة واحدة من أقوالهم ، لأنها أفكار سقيمة وأقوال جيل كفر بالله .. ونتاج عصر جحد بالإنسانية وقيمتها ، وهى أبلغ دليل على خبث قلوب هؤلاء وموت أرواحهم وفساد ضمائرهم . وإذا فسدت الضمائر وخبثت القلوب وماتت الأرواح فى الأبدان ، فإن لصاحبها أن يفعل ما يشاء لأنه أصبح كالأنعام بل أضل

ولعل العالم لم ير قط رأيا الأم من هذا الرأى ولم يسمع قولا أكفر من هذا القول ، فهل يعقل أن رجلا كاذبا خداعا يستطيع أن ينشر دينا بين الناس وأن يوجد العجب من القوانين والأحكام التى كانت مدار الأحكام والتى أصبحت محور القوانين جميعا رغم كل ما يقال . والله إن الرجل الكاذب لا يستطيع أن يقيم بيتا من الطوب ، لأنه يدعى أنه عليم بخصائص الجير

والجص ومواد البناء وهو لا يعرف منها شيئا . فإن الذي يبنيه إنما هو تل من الأنقاض وكثيب من أخلاط المواد ، لا يستطيع أن يثبت اثنتي عشرة ساعة إذا هبت عليه ريح عاصف ، لا أن يقف كالطود الشامخ أمام مختلف الأعاصير والأنواء اثني عشر قرنا يسكنه مائتا مليون من الأنفس ، لا يمر عليهم وقت إلا وهم في ازدياد مستمر ونمو مطرد ، أفبعد هذا يقال إن محمدا كاذب خداع

وليعلم من لم يكن يعلم أن على المرء أن يسير في جميع أمره طبق قوانين الطبيعة لا يخالفها ، وإلا استعصى عليه الأمر وأبت هي أن تجيب طلبته وتعطيه ما يشاء ويبتغي

كذب وافتراء والله ما يذيعه أولئك الكفار ، ولا بد أنهم سيعودون في النهاية مهزومين وإن زخرفوا أقوالهم حتى تخيلها بعض الناس حقا

باطل وزور والله ما يدعون إليه وإن زينوه حتى أوهموا السذج أنه صدق . ومحنة والله ومصاب ما بعده مصاب أن ينخدع الناس بهذه الأباطيل ، ويجد الكذب له بين الأمم والشعوب آذانا صاغية

ولكن مهما كان الأمر فإن الناس سيأتي عليهم اليوم الذي يدركون فيه كذب هؤلاء ، إنه كما ذكرت لكم من قبيل الأوراق المالية المزيفة ، يبذل لها صاحبها غاية الجهد ، ليتخلص منها ويخرجها من كفه القذرة الأثيمة ، ليقع في ضررها غيره ويحيق مصابها بسواه ، ولكن لا يلبث زيفها أن يظهر للناس ، فيلقون بها في سلات المهملات وهم يصيحون بملء أفواههم « هذه أوراق مزيفة »

* * *

إننا لو قارنا بين دعوة محمد وصدقه فيما أتى به ، وبين دعوة زعماء الثورة الفرنسوية — لا على سبيل المساواة في القيمة الروحية ولكن على سبيل المثل فقط ؛ إذ من الظلم البين أن تقرن الثانية بالأولى — وما حاول أولئك الزعماء نشره ، لوجدنا أن الأولى قد جاءت من قبل مجيء الثورة الفرنسوية بمدة قرون وبقيت بعدها وستظل ثابتة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها

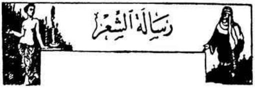
أما الثانية فقد ذهبت بذهاب دعاتها ، بل إنهم هم أنفسهم لم يأخذوا بها ولم يسيروا على ما كانوا يدعون إليه ، وهذا أكبر شاهد على أن محمدا لم يكن أخا شهوة كما يتهمه أولئك الضالون ، ظلما وعدوانا

والله لشد ما نتعدى حدود الجور والخطأ ، إذا اتهمنا محمدا بأنه رجل شهواني لا هم له إلا إشباع نفسه من الملاذ وقضاء مآربه من الشهوات . فما أبعد ما كان بينه وبين الملاذ والشهوات ، بل لقد كان زاهدا في حياته كلها متقشفا في مأكله وملبسه ومسكنه ، وجميع أحواله ، فقد كان طعامه عادة لا يزيد على الخبز والماء ، وكثيرا ما كانت الشهور تمضي ولا يوقد بداره نارا تحت قدر ، وإنهم ليذكرون ... ونعم ما يذكرون — أنه كان يقوم بأعماله بنفسه ، يرفو ثوبه ويخصف نعليه بيديه ، فهل بعد هذا تواضع ومفخرة ؟ وهل هذه هي صفات الرجل الذي يسعى إلى الجاه والسلطان والملك والصولجان !

حبذا محمدا من رجل خشن الطعام مرقع الثياب مجتهد في الله ساهر ليله يذكر ربه وينصت لوحيه جاهدا في نشر دينه ، لا يطلب رتبة ولا يطمع في دولة أو سلطان أو غير ذلك مما يتطلع إليه أصاغر الرجال

والله لو لم يكن محمد صادقا في دعوته مخلصا في تأدية رسالته لما لقي من أولئك العرب الغلاظ الأكباد توقيرا ولا احتراما ولا تعظيما ولا إكبارا ، وما كان مستطيعا معاشرتهم أكثر أوقاته بعد أن قام بدعوته ثلاثا وعشرين حجة . وما كان في مقدوره أن يقودهم إلى ميادين القتال لا يهابون الموت ، يلتفون حوله ويقاتلون بين يديه ويجاهدون في سبيل دعوته ، يلقون مصارعهم آمنين مطمئنين إلى المصير الذي وعدهم الله إياه « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقا في التوراة والإنجيل والقرآن ، ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم »

لقد كان في هؤلاء العرب غلظة وجفاء وكبر وعجرفة ، وكانوا حماة الأنوف أباة الضيم صعاب الشكيمة وعسر القيادة ليسوا



النهر الملـــــول* !...

عن أندريه موروا

للأستاذ أنور العطار

« يرى « موروا » حياة الإنسان نهرا ملولا ، ويرى الموت بحراً ، ولقد تضجره الحياة والأحياء ، وتسئمه الأماني والآمال فيهيب بنهر حياته الملول أن انسكب في خضم الردى وغب في بحر الفناء »

قد نجونا من الحيـاة ومن سحرها المعجب
ومن المأمل الشهى ومن كالح الرهب
خالق الموت والحيـاة ويا خـــير من وهب
لك شكراننا العميم على الدهر قد وجب
ولك الحمد أن قطعـ ـت من العيشة السبب
أنت أوردتنا الردى والردى السؤل والطلب
فسلمنا من الأذى واسترحنا من النصب

(*) من ديوان « وادى الأحلام » الماثل للطبع

لو ملكنا عرا البقـاء لمـا شاقنا أرب
ولأودى بنـا الحنين إلى الملك والعطب
كل من ذاقه استراح من الهم والتعب
ماله الدهر رجعـــة أو معـــاد ومنقلب
فلقد تســـأم الحياة وقد يجتوى الرغب

• • •

رب نهر معـــذب مل من طول ما سرب
وتنـاهى به المطـاف إلى البحر فاحتجب

أنور العطار

بالمتساقين وراء كل ناعب ، فمن استطاع تذليل جانبهم وقدر على رياضتهم ، حتى رضخوا له وساروا وراءه مسلمين له القياد ، فلولا ما أبصروا فيه من آيات النبل والفضل والصدق والإخلاص ، لما خضعوا له ولا أذعنوا لأمره. وإنى أعتقـد أنه لو كان أتيح لهم بدل محمد ، قيصر من القيـاصرة بتاجه وصولجانه ، لـما لقى من طاعتهم واحترامهم بعض ما لقيه محمد فى ثوبه المرقع بيده . وهذا أكبر دليل على عظم محمد وصدقه فى دعوته وإخلاصه لربه

عبد الموجود عبد الحافظ

من الشعر الفكاهى

من وحى الكأس

للأستاذ محمود غنيم

على بك شخصية لا تكاد تفارق الكأس شفتيه ، كان موظفا كبيرا ثم أحيل إلى التقاعد من سنوات ، وقد أقام له الشيخ المحترم سعد بك اللبان بقصد الدعاية حفلة تكريم ألقى فيها الشاعر هذه القصيدة

صاغوا لك الشعر من زهر ونوار وصغته لك من حانوت خمار
ما « الروم » إن قلت شعرا ياعلى وما
زبيب « زوتس » أو « كونياك أو تار »
حطم كؤوسك واشرب ياأباحسن سلافة عصرت من كرم أشعارى
لله درك شيخا ليس يشبهه نهر من الخمر فى أحشائه جار
حمراء سحنته بيضـــاء لحيته لـكن صفحته سوداء كالقار
إن الشيوخ تقوم الليل فى حرم لـكن على يقوم الليل فى « بار »

• • •

يمشى على فلا يدرى إلى جبل تقوده قدماه أم إلى الدار ؟
يضل عن بيته والشمس طالعة وليس يبعد عنه غير أشبار
وربما دق باب الجار من خبل وربما ضربته زوجـة الجار
يعد « بى » عليه الكأس أربعة أو خمسة وهو لا واع ولا دار
ويحسب الفار إذ يبدو له جملا يعدو عليه فيجرى خشية الفار

ويطلب اللحم من دكان فاكهة ... ويشترى الوز من حانوت جزار
وربما خدعته العين فى رجل ... يمشى فقال : مساء الفل ياماري
وربما قابل « المترو » فقبله ... فى وجنتيه وحياه « بسيجار »
وربما أطلق السكين « قنبلة » ... وراح يحسبها رنات أوتار

* * *

على عذرا إذا أسرفت فى هذرى ... فأنت ذو منزل عندى ومقدار
حييت يا صاح فيك النبل أجمعه ... حييت فيك لسانا غير مهذار
حييت فيك حديثا خف مسمعه ... وكم حديث يحاكى رجم أحجار
ظل خفيف وأخلاق معطرة ... لو نسقت أصبحت باقات أزهار
يكفيك نجلان يزدان الحمى بهما ... كلاهما لامع كالكوكب السارى
وندوة الشيخ « سعد » أنت بهجتها ... لله درك بدرا بين أقمار

* * *

لاعيب فيك سوى كأس تضاجعها ... فى النوم تغنيك عن زوج وأصهار
وكل ما أنجبت مصر وما ولدت ... « باريس » من خرد عون وأبكار
الدهر أفسد شيئا أنت تعرفه ... ما عاد ينفعه إصلاح عطار
بالأقدمية عش فى البيت منزويا ... وأخف نفسك فيه خلف أستار
لا تغضبن على فول ولا عدس ... ولو أتوك بسم ناقع هار
عش يا على مليا واقض عمرك فى ... كاس وكاس وفى لهو وأسمار
وخل من شاء يبكى الحظ منتحبا ... ويقطع العمر فى هم وأفكار
أترع كؤوسك واشرب كيف شئت وقل
يا نفس لا تقنطى من رحمة البارى
ما العار إلا الأذى بالناس تلحقه ... ما فى المدام ولا فى الكاس من عار
قد يغفر الله للسكير من كرم ... ويخلد الراهب الذكير فى النار

* * *

على هذا قريض كنت تطلبه ... فأد فى كل بيت ألف دينار
الشعر غال ولكنى أجود به ... عليك . إنك مثلى جائع عار

محمود غنيم

أخى

للاستاذ محمود البكرى محمد

أخى ! .. قد غالنى الجوع ، وهد الفقر بنيانى
ودب الضعف فى جسدى ، وهز الشر إيمانى
وطال الليل ، وامتدت على الأيام أحزانى
فكفكف دمعى الهامى ، وأطفئ نار حرمانى

* * *

أخى !.. قد أقبل الليل .. وشاع الصمت فى الوادى
وفى عشى قد ارتعشت بنيانى .. وأولادى
يهيج أنينهم قلبى .. ويذكى نار أحقادى
وما فى العش من دفء ، وما فى العش من زاد

* * *

أخى ! قد عربد الشر ، وماجت بالأسى نفسى
ونام الخير ، وانبعثت دواعى الثأر فى رأسى
وجن البؤس فانتفضت بكفى بغتة فأسى
أرونى الظالم العاتى ليلق الرد من بأسى

* * *

أخى احفر لى — على عجل — بفأسى هذه قبرى
والحدنى ! .. فما بقيت سوى الأوهام من عمرى
سئمت مآسى الدنيا ، وضقت بقسوة الدهر
سقانى الكأس حنظلة ، وقلبى على الجمر ! ..

الكيان **محمود البكرى محمد**

الأدب والفن في أسبوع

حملة انجليزية على الدكتور طه حسين باشا :

شن بعض المدرسين الإنجليز الذين فصلوا من المدارس المصرية حملة هوجاء في جريدة « الإجبشيان جازيت » ضد سعادة الدكتور طه حسين باشا ، تحت عنوان « الصنم الذي هوى » وهو عنوان يدل على مقدار « أدب المربين » الإنجليز :

وقد ادعى أولئك الكاتبون « المهذبون » أن وزير المعارف السابق عاملهم معاملة غير كريمة وغير عادلة لأنه فصلهم من وظائفهم .. ويظهر أنهم لم يجدوا في قضيتهم الأساسية ما يناقشون فيه على أساس المنطق المقبول ، فلجأوا إلى الهجوم الشخصي . ومن أعجب ما جاء في كتابتهم أن الدكتور طه حسين باشا سقطت مكانته بعد الخروج من الوزارة !!

وأنا أسأل هؤلاء الأساتذة الذين يفترض فيهم أنهم من المثقفين .. هل هم يعيشون في مصر أو في انجلترا ؟ إذا كانوا قد عاشوا في مصر بعقولهم كما عاشوا فيها بأجسامهم فكيف يخفى عليهم أن طه حسين رجل له مكانته في هذه البلاد باعتباره أستاذ النهضة الفكرية المعاصرة، وباعتباره كاتبا أجمع المواطنون على سبقه من الناحيتين الفنية والإصلاحية ؟ فالوزارة لم تضف إليه شيئا من مجد أو مال حتى يهوى بالخروج منها ، ومثل طه حسين هو هو في الوزارة أو في خارجها

وإذا كانوا يعيشون في انجلترا فهل جاءتهم أنباء الحفاوة التي قوبل بها الدكتور طه حسين باشا من نحو عامين في الجامعات الإنجليزية حيث أشار الأساتذة هناك بعبقريته وآثاره في ميادين الفكر والثقافة والتعليم ، ومنحته الجامعات « دكتوراه » فخرية ؟

ففي أي مكان هوى ذلك النجم ؟ أفي مصر أم في انجلترا أم في عقول أولئك المدرسين الخاوية ..؟

وقد تصدى للرد على تلك المقالات الأستاذ إسماعيل كامل في نفس الصحيفة « الإجبشيان جازيت » وفند أقوالهم تفنيدا لقي ارتياح العقلاء من قراء هذه الجريدة

ثم كتب العميد نفسه مقالا في الصحيفة ذاتها رد به على تلك الغارة الشعواء ، قال فيه : أود قبل كل شيء أن أسأل لماذا انتظر هؤلاء هذه المدة الطويلة ليشكوا مما حدث منذ أكثر من شهرين بل في التاسع من ديسمبر بالذات ؟ ولماذا آثروا الصمت حينما كنت عضوا في الحكومة المصرية ؟ إنه ليسرني أن أتبين أن الشجاعة كانت تنقصهم ، مع أنه لم تكن هناك أية رقابة إذ ذاك

ثم قال سعادته: على أن مسئولية فصل أولئك المدرسين لا تقع على وزير المعارف ، أو على مجلس الوزراء المصري ، ولكنها تقع على العسكريين البريطانيين في منطقة القنال، الذين سلكوا سلوكا لا يمكن قبوله في القرن العشرين

وأوضح في المقال ما صنعه معهم إذ أراد أن يحميهم من الهجوم الذي قد يتعرضون له في المدارس وفي الجامعات ، فطلب إليهم أن يبقوا في منازلهم ليدفع عنهم غضب أبناء الشعب من طلبة المدارس والجامعات

وقال سعادة العميد : وإذا ما رغب هؤلاء الأساتذة في الشكوى فإني أنصح لهم ، عندما يعودون إلى انجلترا ، أن يرسلوا احتجاجات إلى مستر تشرشل مثلا أو إلى أي شخص آخر مسئول عما حدث ، لا لهم فحسب ، ولكن وقبل كل شيء عما حدث للشعب المصري كله منذ اكتوبر سنة ١٩٥١ ، وذلك مادام إحساسهم بالعدالة عظيما إلى هذا الحد !

وقد قرر مجلس الدولة أنه ليس لهؤلاء المدرسين حق في الحصول على أي تعويض ، ولكن الحكومة قررت — بناء على طلب وزارة المعارف — منحهم مرتب ثلاثة شهور ونفقات سفرهم

فأية عدالة يطلبونها بعد ذلك ؟ وأيهما يبدأ كرم : موقف الوزير منهم ، أو موقفهم منه وهم يتطاولون ويتقولون عليه بعد خروجه من الوزارة .. ؟

حقيقة المسألة — على ما هو طبيعي — أن الدكتور طه حسين باشا كان مصريا فغضب الإنجليز ...

قمار الوزراء:

قال دبشليم الملك لبيدبا الفيلسوف: اضرب لي مثلا للخادم يحتاج إلى أن ينبه في كل أمر ولا يستخلص مما يؤمر به خطة يلزمها ونهجا يسير عليه. قال بيدبا: مثل ذلك — أيها الملك السعيد — الإذاعة المصرية. شكا الناس منذ سنوات من أغنية «حودة ياني» إذ استنكرها ذوو الحياء والغيرة وألحوا في استنكارها، فلم يسع الإذاعة إلا منعها. وشكوا من أمثال لها وحملوا عليها فرضخت وامتنعت عن المنكر. وكان حريا بها أن تدرك أن المسألة مسألة خطة يجب أن تكون مرسومة، وأن ما استنكر ليس إلا مثلا يجب القياس عليه.. ولكن ظهر أنها تحتاج في كل مرة إلى استنكار جديد من مخدومها الشعب.. فقد لاحظ هذا السيد (الشعب) أن خادمه (الإذاعة) تذيع في هذه الآونة التي تتطلب العمل الجد مثل أغنية «الدنيا سجارة وكاس» وأن هذا لا يتفق مع التبعات الجسام التي يعد لها جيل الشباب، فهناك أشياء أهم من السجارة والكاس.. ومثل الأغنية التي يقول فيها المغني «تعالى بين أحضاني» — لاحظ السيد ذلك من خادمه العجيب الذي كان يجب أن يدرك من تلقاء نفسه أن ذلك لا يليق، فغضب عليه و«شخط فيه» فاضطر إلى أن يقول «حاضر يا سيدي!»

قال دبشليم الملك: حسن ما جئت به من مثل! ولكن كيف تستعمل الدولة المصرية هذا الخادم الساذج في عصر التقدم الذي يوجد به خدم مدربون أذكياء؟

قال الفيلسوف: أيها الملك السعيد، ليست المسألة بهذه المثابة، ولكن «إذا حسنت أخلاق المخدوم ساءت أخلاق الخادم»

قال دبشليم الملك: زدني إيضاحا.

قال بيدبا الفيلسوف: إن من في الإذاعة قد لا ينقصهم الذكاء وربما كان لبعضهم دربة. ولكنهم «محاسيب» لذوي النفوذ، جيء بهم ليغدق عليهم ثم لا بد من الإغضاء عنهم..

قال دبشليم الملك: وما رأيك في قولة رئيس الوزارة الجديد أحمد نجيب الهلالي باشا: «إن نوادح الفساد»

قال الفيلسوف: إنا لمنتظرون..

كشكول الأسبوع

▫ أجرى مجمع فؤاد الأول للغة العربية يوم الاثنين الماضي الانتخاب لشغل الكراسي الثلاثة الخالية به، فأسفرت النتيجة عن انتخاب واصف غالي باشا والدكتور محمد كامل حسين بك مدير جامعة إبراهيم، أما الكرسي الثالث فاكتنفه التوفيقان: توفيق الحكيم وتوفيق دياب. إذ لم يبلغ أحدهما نصاب التوفيق.. فأجل الانتخاب لهذا الكرسي إلى جلسة تحدد فيما بعد

▫ لوحظ أن الكتاب الذي رفعه إلى جلالة الملك أحمد نجيب الهلالي باشا بالإجابة إلى تأليف الوزارة — مكتوب بأسلوب أدبي يذكر برسائل البلغاء من الوزراء الكتاب الأول، ولا غرابة في ذلك فالهلالي باشا كاتب أديب ممتاز

▫ وفي الوزارة الهلالية الجديدة كذلك أديب متمكن يقرض الشعر أحيانا وإن لم يعرفه الجمهور بذلك، وهو معالي الأستاذ محمد مفتي الجزائرلي باشا وزير الأوقاف

▫ عقدت لجنة جوائز فؤاد الأول الأدبية أول جلسة لها في هذا العام يوم الأربعاء الماضي. ومما يذكر أن معالي عبد الخالق حسونة باشا وزير المعارف السابق كان قد أصدر قرارا باستمرار تأليف اللجنة كما هي، وكان الدكتور طه حسين باشا أول من استن هذه السنة وأقر هذا الوضع، فاللجنة مستمرة بهيئتها منذ ألفها السنهوري باشا إبان توليه الوزارة، وهي برياسة الأستاذ علي عبد الرازق باشا

▫ كان السجل الثقافي الذي تصدره الإدارة العامة للثقافة بوزارة المعارف، مما ترجع إليه لجنة جوائز فؤاد الأول لتتبع ما صدر من المؤلفات. ولكن سجل سنة ١٩٥٠ لم يصدر إلى الآن وقد مضى على موعده سنتان!

من القارئ إلى الكاتب :

تلقيت الرسالة الآتية من الأديب عبد اللطيف الطالب بمعهد القاهرة الثانوى ، وقد حرص على أن يبعث بها إلى — كما قال فى هامشها — ليجنبها على أستاذنا الكبير الزيات بك. وقد رأيت أن أنشرها فى هذا الباب لأنى أشارك صاحبها ما تضمنته من رأى ورجاء، وأعلم أن «شعب الرسالة» يرى ذلك ويرجوه ، ونحن الآن فى عصر الشعوب واحترام إرادتها ، وهذا هو نص الرسالة :

« أما بعد التحية : فللأستاذ الزيات فى قلوب القارئين مكانة تجل من الوصف وتنبو عن مواطن الشبهات، وذلك لما اتصف به من العمق العميق فى البحث ، والإحاطة الشاملة فى الدراسة، والأمانة الدقيقة فى الترجمة والأخلاق العالية فى التجميل والتزين، مما حدا بأساتذتنا أن يقولوا لنا فى فصول الدراسة « اقرءوا الزيات من خلال كلماته فإن كلماته تشف عن الرفعة والنبل والجمال

وبيننا — معشر قراء الرسالة — وبين أستاذنا الزيات مشكلة نرجو لها حلا، أستغفر الله بل لنا رجاء — حق أكون مؤدبا — نضمه بين يديه إن الأستاذ الزيات يضن علينا

□ من الكتب القيمة التى ظهرت أخيرا كتاب « الإنسان بين المادية والاسلام » للاستاذ محمد قطب ، وتدور موضوعاته حول النفس الانسانية من حيث نظرة الغرائز والمذاهب المختلفة إليها . والفكرة التى يرمى إليها المؤلف هى أن الاسلام يقف فى طريق وسط بين المسيحية التى تفرض الكبت على الطاقة الحيوية للانسان وبين « فرويد » الذى يطلق النفس من عقالها ويعتبر الانسان حيوانا أرضيا . والأستاذ محمد قطب كاتب شاب ولكنه يبدو بهذا الكتاب فى نضج الشيوخ من حيث اتزان الفكر وعمقه ، إلى ما فيه من سلامة المنطق وجمال العرض وصحة الاستنتاج

□ ومن أحسن ما صدر أيضا فى هذا الشهر كتاب « نديم الخلفاء » للأستاذ عبد الستار أحمد فراج ، وهو آخر حلقة فى سلسلة « اقرأ » يعرض فيه حياة الشاعر الخليع الحسين بن الضحاك ، وقد تعمد أن يكثر من إيراد شعره وأخباره لاستكمال تصوير الشاعر وتصوير بيئته ، وقد وفى ذلك حقه مما يدل على شمول إلمامه بمراجع الموضوع . وأبرز مايلاحظ فى الكتاب غير ذلك أن المؤلف تحدث عن العبث والمجون والحريات فى تلك البيئة بأسلوب لبق ناصع جذاب .

□ تقرر نقل الأساتذة هارون الحلو وسليمان النملى وعبد الغنى سعيد من إدارة الإذاعة إلى وزارة التموين .. وقد كانوا يشرفون على الشؤون الثقافية بالاذاعة ، وهم من أساتذة اللغة والأدب ، ولذا لا يدرى أحد ماذا سيصنعون بوزارة التموين .. ويقترح أحد الظرفاء أن يشتغل الأستاذ « الحلو » بتوزيع بطاقات « السكر » !

□ وافقت الحكومة المصرية على ما اقترحته « اليونسكو » من إلغاء الرسوم الجمركية المقررة على المواد اللازمة لشؤون التربية والتعليم والثقافة ، وتشمل هذه المواد الكتب والصحف والدوريات والأفلام الدراسية والأعمال الفنية وغيرها

بمقال كامل يشغل صحيفة وبعض الصحيفة فى كل أسبوع يتوج به مجلتنا الحبيبة التى تتلقفها أيدينا فى نهم كما تتلقف أفواه الجياع أرغفة الخبز

أفلا يتفضل ويغمرنا بهذا المقال كلما خرج إلى الوجود عدد جديد من الرسالة الغراء ؟!

وهذا رجاء يعتمل فى نفس كل قارئ للرسالة ، وأعتقد أن هذا من حق القارئ على الكاتب الذى ينزله من قلبه منزلة رفيعة . وعلينا لأستاذنا الزيات أن نفهم ما يكتب وأن نتدبر ما يقول ..

وقد عبرت عن بعض ذلك الآنسة العراقية صاحبة « رسالة الجسم الجميل وصورة الروح النبيل » لكنها غلب عليها حياء العذارى حين طلبت من أستاذنا الزيات أن يخصص عددا من الرسالة لتأبين المرحوم « على محمود طه » يكتب هو أكثره ، ولم تطلب منه أن يضع لنا كتابا يتناول فيه بالتحليل والدراسة شخصية وشعر « شاعر الحب والجمال » الخالد

إن حقق رجاءنا أستاذنا فقد أضاف إلى فضائله الكثيرة فضلا وإن لم ... فسأضع هذا الأمر بين يدى قراء الرسالة على صورة استفتاء !

وحينئذ لا مفر من النزول على رغبة القراء وتفضلوا بقبول فائق الاحترام »

عباس خضر

الكتب

رياح وشموع

شعر : كمال نشأت

للأستاذ محمد محمود زيتون

هذه مجموعة رقيقة من شعر الشباب ، ضمت أصدق الأحاسيس ، التي اهتزت لها مشاعر الأستاذ الشاعر كمال نشأت ، وقد ملك الربيع عليه سمعه وبصره ، فنفقا عن صخب الناس ، ومضى إلى الطبيعة يستجليها ، فواتاه الإلهام وساعفه النغم

ولا عجب ، فهو من شباب الإسكندرية ، أمسى وأضحى بين عينيها، فافتتن بالأنسام، واحتفل بالأمواج، واختلى بالأسحار والأصائل ، فتصيد لقيثارته الشادية أوتار الربيع ، فامتزج النغم الناعم بالموج العتى ، وخفقت « الشموع » فى رعونة « الرياح » العواصف ؛ وللربيع فى حناياه دوى لا يبلى مع الخريف الحائل ، والهجران الموحش

يستهل الشاعر مجموعة « رياح وشموع » بالقطعة الجميلة التى عنوانها « ربيعى » ، وهنا نضع بين يدى القارئ مفتاح الشاعرية الذى يهدى إلى أسرار نفسه : فليس الربيع خضرة وزهرة . أو جدولا وبلبلا .. أو بعضاً من تلك المفاتن التى تجتمع عليها الحواس المشتركة لناس هـذه الدنيا ، ولـكن الربيع عند الشاعر معان مجردة له أن يمنحها ما يشاء من الأصباغ ، وله أن ينغمها بحيث ينفرد هو بتوقيعها على قيثارته فى محاريب الفن

لهـذا ، كان ربيع شاعرنا معنى جديداً له معالمه ومعارفه ، فالحياة فى تقلباتها « ربيع خالد لا ينتهى » بحيث لا يغفو مع الخريف ، ولا يمسو مع الظلام ، فليتأمل القارئ هذين البيتين وبينهما سبعة أبيات رقاق :

وبمهجتى أجـد الربيع مجدداً ... أبداً نضيراً فى الشعور الناضر
أنا فى الخريف أرى ربيعاً غافيا ... وأ كاد ألمسه صنيعة ساحر

ويسبح بمدذلك فى الآفاق الفساح، دافعاً بجناحه الذهبى هـذا السحاب، متنقلا على بساط سليمان من الروض إلى الميناء إلى محطة الرمل إلى الترام إلى تريانون إلى العيون النواعس إلى الشاطىء ، والربيع من حوله : هالة مشعة أو بسمة دافقة ، يقول :

هو فى دمى خلد وبين أضالعى ... غـر أوائله بها كأواخر
لى خافق يجد الربيع منوعا ... فى كل مرأى يستبين لناظرى
لى خافق يجد الربيع بكل ما ... يلقاه من ماض لدى وحاضر

فى البحر ، فى القفر الجديب ، وفى لظى
بين الجوانح ، فى ظـلام مغاور
فى بسمة الطفل الصغير تكشفت
عن طهره فى روعـة المباكر
فى غنوة العصفور فى ألق الضحى
فى ضجة الموج العتى المـادر .

وإذا عاد ربيع الناس ، ترنم شاعرنا بهـذا النشيد العـذب « نداء الربيع » فيقول :

عاد الربيـع ومهجتى ... فيها ربيع نـاضر
شعر ، وأحلام ، وأنغـام ، وشوق زاخر
عاد الربيع فعدت أسمع بين أحنائى خطاه
همس يـدب مجـدداً ... فى القلب أفراح الحياه

ولئن تملك الربيع شاعرنا الملهم ، فلا أقل من أن يمتزج بتهاويله فتراه — وهو على ضفاف « بحيرة البجع » — يتمنى أن يكون عطراً أو ريشة أو ظلاما أو صباحا أو سكونا أو ظلاما ، ولكنه قلب أسير فى يد الحقيقة ، فيناجي البجعات السابحات الفاتنات :

آه لو كنت فى رحابك عطراً ... فى زهور على غصون وريقـه
آه لو كنت ريشة فى جناح ... لطيور منـعمات رشـيقه
آه لو كنت فى مياهك ظلا ... غائصاً يرتقى الزهور العريقه
كم تمنيت أن أ كون صباحاً ... ناعـماً حالماً رقيباً شروقه
كم تمنيت أن أ كون سكوناً ... فى كهوف بين الجبال سحيقه
كم تمنيت أن أ كون ظلاماً ... ناشراً ستره محبا سموقه
كم تمنيت أن أ كون ، وما كنت سوى مهجة بأسر الحقيقة

البريد الأدبي

تحية الى مؤلف «محاضرات الثلاثاء»:

أرسل حضرة صاحب العزة الأستاذ محمود تيمور بك إلى الأستاذ أحمد الشرباصي الخطاب التالي، بتاريخ ٣٠ يناير سنة ١٩٥٢ م.

«عزيزي الفاضل الأستاذ أحمد الشرباصي

أبعث لفضيلتكم بأسمى التحية شاكراً لكم هديتكم الطريفة (محاضرات الثلاثاء) وإني إذ أكتب لكم عن رأيي في هذا الكتاب، فإنما أكتبه عن يقين وإخلاص ...

ولا أكتمكم سروري الكبير الذي شملني على إثر مطالعتي لهذا السفر الطريف، الذي دل على روحكم العالية، ونزعتكم في الإصلاح، متخذين الدين كأساس لهذا الغرض، في مرونة تساير روح المجتمع، دون خروج على مبادئ الشريعة الإسلامية السمحة الغراء.

كل ذلك يجري في معالجة طريفة أخاذة، وعرض رفيع رائع، وأسلوب سام رصين. فأهنئ فضيلتكم تهنئة صادقة، وأؤمل أن تواصلوا هذا النشاط الاجتماعي الديني المشكور في همتكم المعروفة، فيستهدي بها ويستضيء

وتحياتي الخالصة إليكم مشفوعة بتقديري واحترامي»

المخلص

محمود تيمور

سرافه الأدب في وزارة المعارف:

ما أضيع الأدب في وزارة المعارف، وما أسرع النسيان إلينا حين يمضي النهار بالأدباء الراحلين ممن خدموا الثقافة القومية، ودعموا أركانها. أقول هذا حين أذكر تلك النهضة التأليفية التي بزغت عندنا سنة ١٩٣٨، فنظمت الوزارة مسابقات أدبية رفيعة أكرمت فيها الفائزين ماليا، ووعدت بطبع مؤلفاتهم التي فازوا بها: ولكن مضت الأيام والسنون، وتقلبت العهود، وما تزال هذه الكتب كالأطياف الباهتة في بقايا ذاكرة وفية حقاً، لقد مضى أصحابها إلى دار البقاء، وخجل أهلوهم من الانتصاف للأموات من الأحياء، وقد طوتهم الأيام بأرزائها، ولكنا نتساءل: إلى متى تسير الوزارة، وزارة العلم والأدب،

وتراه يزف «نسمة الفجر» إلى دنيا الناس فيقول:

هبي على القفر الجديب، على السهول، على البحور
روحاً تعانق كل ما تلقاه، طـاهرة الضمير
وتوحد الكون الكبير، بحبها العف الكبير
وتثير في القلب المعذب فرحة الطفل الغرير
دوري بأحلام الربيع، وعطره بالأفق دوري
وتناثري فرحاً، وأحلاما على الروض الشجير

إنه لا شك شاعر هيمان، له قلب أخذ يرق ويرق حتى صار فلذة من الطبيعة الحافلة بالجمال. فهو يقول:

فوق هـذي الظلال سرنا ظلالا
ضاحكات على الطريق الوديع

ويبدو هـذا المزاج الشاعري في نفثاته الموزعة بين «الليل الربيعي» و «البرعم الشفق» و «همسة الصبح الخجول» ولا يعبأ بعد ذلك بالعواصف الهوج و «الضياء المقرور» والشموع الخوافق، فالأمل يحدو له بنشيد «الصباح المطوف»

إن قسا الليل ظلمة ورياحاً فالصباح المطوف في أحنائي
والسكون العميق بين ذراعينا ودفء الدماء في الأعضاء
أطفئي خافق الشموع، وخلينا ظلاماً إلى مجيء الضياء

هذه بعض الرؤى الباسمة. والظلال الخفاف، التي تسابقت إلى خيال الشاعر كال نشأت، فاهتزت لها ريشته الصناع، ما كدت أفرغ من ترتيلها حتى رأيتني صادق الرغبة في إشراك قراء الرسالة معي في الإعجاب بها، والتقدير له، فله مني أخلص التهنئة على براعته في التقاط الهمسات والبسمات والنسمات التي صاغها مع الربيع في «رياح وشموع»

محمد محمود زيتونه

على ظهر سلحفاة ، كلما اتصل الموضوع بالشؤون العلمية والأدبية ؟ ولماذا يجازى المرحوم فخرى أبو السعود بوأد كتابيه القيمين عن «الخلافة» «والبارودى» ؟ وما جريرة الأدب المعاصر إذا حرم من ثمرة رجاله السابقين ؟

فلتحمل الرسالة الغراء هذه الصرخة إلى وزارة المعارف ، لعلها تعمل على إحياء ذكرى النابغين الراحلين ، وتفى بما وعدت من طبع تراثهم الممتاز ، فهذا حقهم الشرعى عليها ، تؤاخذ على التفريط فيه أمام محكمة التاريخ ، وتنال الحمد والثناء على أدائه ، وذلك لا سواه هو التقدير الباقى ، والتخليد الكريم لأهل الأدب أحياء وأمواتا ، أما إذا تذرعت بمعاذير رسمية ، فلن يعفيها من التبعة الأدبية عيون يواقظ ، ولا أقل من تسليم هذه الكتب إلى إحدى دور النشر لإذاعتها والانتفاع بها ، وهذا هو العمل الإيجابى الحاسم الذى نطالب به وزارة المعارف اليوم بعد الذى مضى ، وإلا فإنه يحق لأهل الثقافة أن يتقدموا باستجواب محرج بشأن هذه الكتب التى لا ندرى إن كانت موجودة فنبعثها أو موءودة فنحتسبها

ونرجو مخلصين ألا يكون قد أهيل عليها تراب النسيان فى زحمة الأحداث فذهبت مع الريح ، ورحم الله فخرى أبو السعود : نعوا إليه فى حياته فلذتين من كبده ، حين ابتلع البحر المحيط ولديه الصغيرين وهما فى الباخرة الهاوية بأطفال الإنجليز إلى أمريكا ، فمن ينعى إليه فى مماته فلذتين من عقله ، وقد شيع الجحود والإهمال كتابيه الكريمين إلى مدافن الأدب فى وزارة المعارف .. عظم الله أجركم أيها الأدباء

محمد محمود زيتون

ملاحظات أسبوعية :

١ — قرأت رباعيات الخيام مترجمة إلى العربية بقلم الشاعر : محمد السباعى . والمقطع الأول منها هو :

فرد الطير فنبه من نعس وأدر كأسك فالعيش خلس
سل سيف الفجر من غمد الفلس وانبرى بالشرق رام أرسلا
أسهم الأضواء فى هام القلاع

واستوقفنى ص ١٥٤ فى الجزء الثانى من «معاهد التنصيص» لعبد الرحيم العباسى ما أذكر «وبديع أيضا قول ابن وكيع من الرمل ... »

غرد الطير فنبه من نعس وأدر كأسك فالعيش خلس
سل سيف الفجر من غمد الدجى وتعرى الصبح من ثوب الغلس
وانجلى عن حلل فضية نالها من ظلم الليل دنس

وأترك لكل قارئ التعليق على الشاعر السباعى

٢ — وقرأت ص ٩٥ من العدد الثالث من مجلة «المسلمون» قصيدة بعنوان «الفدائيون» مهداة إلى أرواح الشهداء الخالدين مطلعها . والقصيدة للأستاذ محمود حسن إسماعيل

نفخ الصور فانتبه من سباتك أيها الشعب تلك أولى حياتك

ووقفت عند البيت ٣٤

كل هذا وأنت فى دورة الأيا م مستغشيا فى سباتك

القصيدة من بحر الخفيف . واستوقفنى البيت لكسر فيه حيث إن التفعيلة الثانية من العجز ناقصة وتدا مجموعا . ولست أدرى لمن أعزو السبب فى غيبة هذا الوتد ألقلم الشاعر ، أم لجهاز المطبعة ؟

وإلى اللقاء معشر القراء والسلام

محمد محمود أحمد الناجى

ميراث الإخوة لأم

قرأت فى العدد ٩٧٠ من الرسالة الغراء فى البريد الأدبى تعليقا للأستاذ على إبراهيم القنديلى على فتوى صاحب الفضيلة المفتى السابق بخصوص ميراث الإخوة لأم

وقد كتب الأستاذ المعلق أن الإخوة لأم لا يرثون لوجود الفرع الوارث.. وقد استشهد على ذلك بما جاء فى كتاب الفرائض من الجزء الخامس لابن عابدين وكذلك بما ورد فى شرح الشريف على السراجية صفحة ٩٤ إلى صفحة ٩٧

وأنا أضيف إلى هذين الدليلين دليلين آخرين :—

الأول :— هو قوله تعالى بخصوص ميراث أولاد الأم «وإن كان رجل يورث كلالة أو امرأة وله أخ أو أخت فلكل واحد منهما السدس فإن كانوا أكثر من ذلك فهم شركاء فى الثلث» والكلالة من لم يخلف والدا وولدا ، فمعنى يورث كلالة أى يورث من جهة القرابة الكليلة أى الضعيفة وهى قرابة غير الأصول والفروع



الابن

للكاتب الفرنسي بول بورجيه

إستيقظت مدام « ليجيه » فى صبيحة هذا اليوم قلقة بادية الهموم والتفكير . فقد كان عليها أن تضع حدا لحياتها كأرملة فى مقتبل العمر ، ولحياتها كأم ذات بنين ثلاثة . فلقد مضى على وفاة زوجها وهى إذ ذاك فى الثالثة والثلاثين عامان كاملان . وكانت وفاته بعلة ذات الجنب التى غالته وشيكا من دائرة عمله كمحام له شهرة مستفيضة ومحل من قلوب الناس . ومنذ ستة أسابيع سلفت قبل هـذا الصباح الذى تستفيق فيه مدام « ليجيه » حائرة مفكرة ، اجترأ « جورج فوكوات » صديق بعلها المرحوم ومحام مثله أمضى معه سنى الجامعة ثم لزم زوجها فى دائرته لزوم الشريك وفى بيته لزوم الصاحب، اجترأ هذا الزميل على أن يقول للأرملة الصبية منذ ستة أسابيع :

— إنى لأحمل لك أيتها السيدة منذ طويل عاطفة لم أستطع استكناهها ولا فهم طبيعتها إلا منذ اليوم الذى غادرنا فيه صديق العزيز زوجك ، فأصبحت بوفاته حرة التصرف مالكة لزمام أمرك . وأظنك كنت تستشعرين منى هذا الصمت الناطق وتحسين احترامى الراحل الفقيد وتقدرين رعايتى لك . فبسببك يا سيدتى « ومعذرة من اعترافى بهذه الحقيقة » قطعت كل صلة تربطنى بامرأة أخرى فى هذه الحياة ، وأنت كامرأة فى ريق شبابها واكتمال أنوثتها ، لك الحق بل يجب عليك أن تستأنفى حياة الزوجية السعيدة من جديد . وإذن فهل أستطيع ان آمل يا سيدتى أن تعتبرينى الزوج المخلص الذى سيكون من أشهى أحلامه أن يضحى راحته وحياته لأجلك ... إنى أحبك ... يا سيدتى ، ولعلها المرة الأولى التى أسمح فيها لنفسى بنطق هذه الكلمة الجريئة على مسمع منك ... أما أنت يا سيدتى فليس عندك إلا كلمة واحدة تقولينها لى فى هـذه اللحظة ستكون هى

الثانى :— هو نص المادة ٢٦ من قانون المواريث رقم ٧٧ لسنة ١٩٤٣ وهى تنص على ما يأتى :— يحجب أولاد الأم كل من الأب والجد الصحيح وإن علا، والولد وولد الابن وإن نزل »

والمقصود بالولد هنا الإبن أو البنت على السواء

محمد كامل حزب

يصمد بمعنى يثبت صحيح

جاء فى العدد الأخير من مجلة الرسالة الغراء تعقيب ينكر فيه كاتبه على الأستاذ الكبير سيد قطب استعماله يصمد بمعنى يثبت ، مستدلا على ذلك بما جاء فى القاموس من أن الصمد بمعنى القصد والصمد بمعنى السيد وليس من معنى المادة الثبوت

ولو أن الكاتب الفاضل تدبر قليلا فى هذه المادة لوجدها تدل أصالة على معنى الثبوت ثم تدل بعد ذلك على معنى القصد والسيد وغيرهما تبعا، يدل على ذلك ما جاء فى القاموس نفسه من أن من معانى الصمد الدوام: والصماد الجلاد والصمدة الصخرة الراسية، والمصمد الشئ الصلب مافيه خور، وناقة مصماد باقية على القر والجدب دائمة الرسل. ولا يخفى ما فى هذا كله من معنى الثبوت والدوام ثم تفرع عن هذا المعنى الأصلى فى المادة الصمد بمعنى القصد للثبوت عليه والصمد بمعنى السيد لكونه لا يحول عن المكارم

ولعل ما ذكرته هو الذى يتسق مع المنهج الحديث فى دراسات علم اللغة العام . وأما تفسير الكشاف للفظة الصمد من قوله تعالى « الله الصمد » بالمقصود فليس بمستقيم ، والأحق أن يكون معناها الدائم الباقى لأن السورة قد جاءت لتثبت لله صفتى الوحدانية والبقاء، ولا يخفى اتساق هذا المعنى الأخير مع قوله تعالى « لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد » والله أعلم

وللكاتب تحيات المخلص

عبد البصير عبد الله حسين

الأولى والأخيرة . ولكن بحقك لا تلفظها إلا بعد تأمل في عاقبتها ، فإن ما أبثه لك من هوى دفين لأمر من الأهمية والخطورة بحيث لا تكفيه كلمة أو جواب يقال على استعجال واقتضاب . قالت مدام « ليجيه » وصوتها راجف وطرفها خاشع :

— أتطلب مني استئنافاً لحياتي الزوجية معك ؟ ثم جمد لسانها عند هذه الكلمة فلم تأت « بلا » أو « بنعم » ؛ وأخيراً جسرت فقالت :

ولكن حياتي لا يمكن ترميمها ولا استئنافها . إنك تتكلم عن الحق والواجب وأنا لا أعرف إلا حقاً واحداً : هو السهر على أولادي ، ولا أفهم إلا واجباً فـــرداً : هو واجبي نحو أبنائي الثلاثة .. قال الصديق الخاطب :

— أو لا تشعرين أني أحبهم هم أيضاً وأعزهم وأحنو عليهم كأبيهم صديق الراحل ... ؟! ومن لعمري سيحل محل الأب الراحل إن لم يحله صديق أبيهم وصفيه ؟ وهل غيري يعرف ميول صديقه وذوقه ومشربه في التربية والمسلك ؟ وإذن فهل تسمحين يا سيدتي أن أشغل مكان الأب الراحل ؟ أترضين أن تكوني امرأتي أمام الله والناس

قالت الأرملة في حسرة وتلدد :

خلني الآن لشأني ... هلا جنبتني الكلام في هــذا الموضوع . ؟! إنه ليؤلمني البحث فيه ويسبب لي كثيراً من الشجن والشجو

لا أعرف شيئاً . لا أفهم شيئاً . لست بمستطيعة أن ألمح في قرارة نفسي المظلمة عاطفة أستطيع منها إجابتك على سؤالك لأني أجهل نفسي ... ولكني أعدك أن جوابي سيكون بعد قليل من الزمن ... أما الآن فلا أستطيع ، أجل لا أستطيع .. فأجاب جورج فوكوات :

— سأنتظر كلمتك كما تشائين وأنى تشائين - إنك إلا تقولي « لا » هذه اللحظة فحسبي ، لأن ذلك معناه أنك قد تتبصرين خلال سجوف المستقبل الكلمة الحبيبة إلى قلبي وهي « نعم » .

إن التردد والتحير مؤلمان للقلب مزهقان الروح إذا لم يكن القلب المنتظر في شرخ شبابه . قال ذلك وأبان لها عن طرف لمته وقد طرزتها سنوه الأربعون بأسلاك الشيب البيضاء . فأحست المرأة الأرملة وهي تتأمل وخطات الشيب في رأسه ، وتنظر إلى أثر التأنيب الصامت من عينيه السوداوين : أن موسيو جورج إنما يقيس سعادته في هــذه الدنيا بمقياس ما بقي له من سنين فيها ، وكأن نظرته كانت تقول لها ، إن ما يطويه الشباب اللاهي من متع ومباهج لا ينشرها كفن المشيب مهما يمتد ويضف ثوبه . ثم يستأنف حديثه ويقول :

— إنه إحسان منك على أي حال أن تحددي لقلبي الشهيد موعداً للجواب كي أغادرك وأنا أقول لنفسي من يوم لآخر ستوافيني نعمة جوابها في يوم كذا .. « كاترين » ، أيتهـــا العزيزة ، إختاري بنفسك اليوم الموعود وعيني تاريخه ، وليكن القرب والبعد على ما يوافق رغبتك وهواك ... أما أنا فسأعاهدك الآن عهداً لا أحنث فيه ولا أنحرف ألا أخوض في ذكر هــذا الموضوع الذي سيكون برغم هــــذا هو شغلي الشاغل وهمي الناصب .. فحددي بمشيئك موعد جوابك . وهنا تمتمت مدام « ليجيه » بصوت محتبس ولهجة ضارعة : سيكون ذلك حين ينتهي أجل حدادي على زوجي الراحل . وبما أنك تدعى حبي فأرجوك التمسك بوعدك منذ الآن كما أتمسك بوعدي أنا . والآن أرجو ألا تلح علي في هذا الشأن فقد كفاني ماكفاني ...

ثم يقول لها ، وهو يود أن يوضح بالوقت المبين كل شك وغموض يمكن أن يمتور موعده المرجى : وإذن فسيكون جوابك بعد أسابيع في الرابع عشر من نيسان ؟! فأجابت على هذا بإيماءة من رأسها ثم انعقد بينهما جو من الصمت ...

لقد غالت يد الموت زوجها الحبيب في الرابع عشر من أبريل أي منذ اثنين وعشرين شهراً سلفت قبل هذا اليوم الذي يجالس فيه مدام « ليجيه » خطيبها السيو جورج . كل ذلك جال بذهن (مدام ليجيه) وظن الخاطب الصديق الذي شعر بثقل كلماته على نفس الزوجة بعد أن عين لها الموعد المضروب . . . أن يستأنف المرء حياته دون أن يموج بذكرى أحبته الراحلين عن الدنيا ففي ذلك ويا للحسرة إساءة إلى ذكراهم الغابرة وعهودهم الماضية ، وإذن فمن يغب عن الوجود تمت معه ذكراه وتنعدم ثم تبتلعه هوة العدم إلى غير رجعة ، والفقتاء

ومرت على هذا اليوم ستة الأسابيع المضروبة دون أن يلم خلالها طيف الزوج الراحل ودون أن تتردد ذكراه على رأس الخاطب ومدام « ليجيه » فتفسد عليهما خلوتهما اللذيذة وجلساتهما اليومية المتعاقبة ...

ويجد المسيو جورج من اللطف والأدب ألا يعرض لذكر الموعد المرتقب خلال هذه الأسابيع الستة . ثم يرى من الظرف والكياسة أن يغادر (باريس) حين اقترب اليوم المضروب يوم ١٦ نيسان . أما مدام « ليجيه » فقد أخذت تتهيأ لهذا اليوم وهو ذكرى يوم وفاة زوجها . وقد أحيت هذه الذكرى في ذلك اليوم في شيء من البرود وعدم المبالاة لم تمتزج بهما أثارة من حنان ولا بقية من بجيمة وحسرة . وفي اليوم الثالث عشر من نيسان تسلمت من جورج خاطبها خطاباً ينبئها فيه بزيارته من الغد عند الظهر ، فأقبلت على الرسالة تقرأها مرة ومرتين ثم بدرت منها بادرة غريبة عجبت لها هي نفسها ... وذلك حين رفعت رسالته إلى فمها وقبلت سطورها وفي ظنها أنها إنما تقبل حياة تفيض بالسعادة واللذة خلال هذه السطور .. وأخذت تردد : نعم .. نعم .. سيكون جوابي .. نعم . وإذن ففيم استيقاظها صبيحة هذا اليوم مضطربة حيرى كما أسلفنا ؟ .. ما الذي حدث خلال هذه الفترة القصيرة بين تقبيلها رسالة جورج نهار الأمس فرحة نشوى وبين الساعة التي ترتفق فيها وسادة سريرها الوثير يبدو عليها سهوم وتفكير ؟ ما الذي طرأ عليها يا ترى فبدل عزمها ؟!.. وأقبلت الخادم في هذه اللحظة فحسرت أستار الغرفة عن النوافذ والشبابيك فطفت على جوها موجة من نور لألاء ضاحك فمر المكان كله؛ وكان المكان في شارع «فانو» تشرف نوافذه وشرفاته على بستان القنصلية المخضوبة الظليل . ولمت زرقة السماء من خلال النوافذ ونفذ تغريد العصافير إلى المسامع شجيا موسيقيا شعرت معه مدام « ليجيه » أن ثوب الجدة الذي تضفيه الطبيعة على جسمها يتفق والموقف الجديد الذي تقفه هي من حياتها الجديدة هذا اليوم .. حتى أن الثوب المزركش الذي حملته الخادم منذ لحظة كان يغريها بأخيلة وخطرات حافلة باللذة والسعادة..

ومع ذلك فلم يتقطب جبينها ويربد وجهها كلما نظرت إلى عقرب الساعة ينتقل من مكانه . مالها تقف حالة ساهمة بدل أن تنشط وتفرح ؟.. أتراها تتخوف مما عساه يحمله لها هذا اليوم من خوف مجهول ؟

* * *

حين تكلمت مدام ليجيه عن واجباتها نحو أولادها لم تقل كل شيء للصديق الخاطب ، لم تعترف له أن ولدها البكر « شارل » ما فتئ منذ شهور مدعاة تخوفها . أبداً لم يتبادل الابن مع أمه كلمة عن « جورج فوكوات » خاطبها الرغيب ، وكان هذا الأخير لا يميز هذا الغلام اليافع في المخاطبة والحوار عن أخيه الصغير « رنيه » وأخته الصغيرة « هيلين » اللذين كان يكلمهما بصيغة الإفراد دون كلفة . ولكن إذا شفعت سنو الطفل « رنيه » الخمس وأعوام الطفلة « هيلين » العشرة — لهذه الصيغة الافرادية يبدي فيها صديق أبيهما حبه وتدلهه لهما ، فان الستة عشر عاما التي يجتازها الغلام المراهق « شارل » كانت تقيم بينه وبين « جورج » الخاطب جوا مختلفاً عن جو أخويه فيه بدل الألفة والعطف وعدم الكلفة الانقباض والنفرة . ومع هذا فقد كان الخاطب الواغل يغضي عن هذا ويتجاهل ، بل لقد أخذ في الآونة الأخيرة يضاعف عطفه على الغلام ويبتغي الوسيلة إلى قلبه النافر ووجهه العابس الصامت

وتلاحظ مدام « ليجيه » ذلك السلوك المحبب الجذاب الذي يعامل به الخاطب ولدها البكر فتغتبط به وتنشرح له

ولكن رغم كل هذا كانت تترقب من ابنها رفضاً وثورة أخذت تحسب حسابها وتتهيأ لها منذ أيام

من هنا كانت حيرتها وقلقها في هذه الصبيحة الباسمة من نيسان التي كان عليها فيها أن تقول كلمتها الأخيرة في رفض يد « جورج » أو قبولها . ولهذا وحده هي تدير في ذهنها الصورة المستحبة اللائقة التي يمكنها بها أن تفجأ ولدها دون أن تؤذيه أو تسوءه في عزة نفسه ، فكانت تردد :

— كان علي أن أنبئه بذلك وأسبر غور رضاه أو رفضه منذ

ستة أسابيع ... غير أنى لم أستطع ذلك لأنى أجدنى أمامه مرتبكة مشلولة الإرادة كأنى بحضرة أبيه الراحل . فيا لله كم يشبهه حتى كأنه صورته الثانية ! وعلى كل حال فإن جورج أحسن فى تحببه إليه وترضيه ... وذكر اسم جورج هكذا مراراً ، دل المرأة على أنها تنطوى له على حب وميل ..

نعم يلوح لها أنها تحبه بأنصاف من العواطف والميول غير متكاملة ولا متكونة . ولكن ذلك ويا للأسف كان يزيد ألمها ويضاعف شجوها .. أجل إن جورج محق فى قوله . فواجب على معاودة حياتى الزوجية ، وأنا بهذا لا أنال شيئاً من زوجى الميت ولا أسوءه فى كرامته . كذلك لا أفتات على أولادى الأحبة الذين تركهم لى ، لأن جورج سيحبهم وسيحنو عليهم . والصغيران يحسان بهذا ويقدرانه فى سذاجة وطهارة . أما شارل ولدى الحبيب فسوف يقدره كذلك إن تفكر وتدبر . آه لشد ما يحب أباه هذا الصغير ! إنه لينمو ويتفتح للحياة يوما بعد يوم كأنما تتعهد عاه معجزة من السماء

هو الأول فى فصله فى مدرسة « سان لويس » وإنه يترقى بين رفقائه وزملائه بصورة غريبة سريعة كأنما وطن نفسه على أن يسد الفراغ الذى تركه أبوه من بعده ، إن لم يكن قد قام فى نفسه أكثر من هذا : أن يكون خليفة أبيه فى البيت ورب الأسرة التى كان يحلم أن يكون حاميها وراعيها . فيا للقسوة والنكران ! وكيف تجرؤ هذه الأم أن تسلم أمور البيت إلى راع آخر وحام غريب ؟!

ومضى الوقت وكادت الساعة تبلغ العاشرة وأفكار المرأة مازالت تضطرب فى ساحة ذهنها جيئة وذهوبا . وفيما هى منصرفة إلى زينتها وترجيل شعرها وتعليق حليها وأقراطها ، إذا طرقات على باب الغرفة تنفذ إلى أذنيها فيجب لها قلبها وترتعش نفسها أمامه كمجرم أمام قاضيه . وفى الحق لقد كان الداخل « شارل » الذى توقف على الباب لحظة كالمأخوذ بدل أن يدخل عليها لتوه . قالت له الأم مضطربة قلقة وقد شاهدت تأثرا بادياً على محياه وجهه بطابع الألم ؛ مالك يابنى ؟ فأجابها الغلام :

لا شئ لا شئ ، إنى مشدوه متعجب فقط ... لقد ألفت أن أراك دائما فى ثياب الحداد . ولكن ولكن ... أصحيح أن حدادنا على أبى قد انتهى ؟ فألقت « مدام ليجيه » على المرآة الكبيرة أمامها نظرة غير عامدة فإذا بها تبصر ملامح وجهها الرائق تنسجم أبدع انسجام مع خصلات شعرها الذهبى ، ولكن يناقض ذلك كل المناقضة زى ولدها المدرسى الأسود الغارق كله فى حلة من حداد ، ويرتجف صوت الأم حين تهم باجابة ولدها ثم تنجدها لباقتها فتغير مجرى الحديث وتقول :

— ولكن ... قل لى ... لعلك مسرور من أستاذك هذا الصباح ؟ ثم ... ثم كيف حال كتابتك فى الانشاء ، أظنها أعجبته ؟! ثم ناجت نفسها :

— سألبث لحظة قبل الاعتراف له بالحقيقة خصوصا وهو متأثر ومفاجأ بهذا اللباس والوقت متسع للغداء وللافضاء إليه بالأمر ...

* * *

على رغم من أن المحامى المتوفى موسيو « ليجيه » قد خلف لعائلته بفضل مركزه الخطير ونجاحه الكثير ثروة لا بأس بها ، فان مدام « ليجيه » لم تخالف شيئا مما ألفته سابقا من تدبير واقتصاد فى الانفاق على المنزل . ولما كانت مدام ليجيه لا تستقبل فى مفتتح عهدها بالترمل إلا أقرباء يمتون إلى الزوج بصلات القربى والمودة ، فان الإعداد لذكرى الميت لم يكن يحملهم جهدا أو مشقة . ولكن أنى لها بمل كرسى زوجها بشخص خاطبها جورج فى حفلة الغد ؟ أى عذر ستعتذر به لولدها ؟ كيف تخل بهذه العادة التى يقدسها ابنها ويمجدها ، والتى باتت تبهظ روحها وتثقل على قلبها لأن صورة الخاطب أخذت تحتل مكانها يوما بعد يوم من قلبها

وفى صباح هذا اليوم فى وثبة طافرة من وثبات الإرادة الغريزية أمرت مدام ليجيه الخادم فقالت :

— لويس ، لا تضمى فى هذا الغداء مقعد المرحوم زوجى من المائدة ، بل عليك أن تضمى مكانه مقعدا لجورج فوكرات ...

وحان وقت الغداء واتخذت العائلة أمكنتها حول المائدة ، ولكن « شارل » الصغير ما كاد يرى المائدة والكرسي الجديد بدل كرسي أبيه المتوفى حتى حلق في وجه أمه وقد امتقع وجهه وانقصف لونه أولا ثم احمر واشتعل بالدم الملتهب . ونظرت إليه الأم برعب وهيبة ، ثم صبغ وجهها الاحمرار هي أيضا . ولكن في تلك اللحظة الرهيبة الحرجة جرى أمر زاد في اضطراب مدام ليجيه وارتباكها ثم حيرها ، ولكنه في الوقت نفسه أجرى المسألة في مجرى حسن لم تكن تتوقعه مدام « ليجيه » . فبينما كانت تتناول بيدها مسند مقعد كي تجلس إلى المائدة إذا « بشارل » ولدها يلقي عليها نظرة تفيض بالحنان والشكر ثم تخضل عيناه بالدمع الذي لم يكن منبعه الحنق عليها ولا الغضب منها وإنما هو الامتنان منها والشكر لها ... ولكن من أي شيء صدر هذا الامتنان ؟ ! نجم مما صوره له وهمه دون أن يتفطن بالحقيقة الواقعة فلم يلاحظ الولد الطيب صورة المفاجأة والدهشة التي بدت على وجه أمه ، ولا نظرات الارتباك المتبادلة بينها وبين الخادم ، فقر في ذهنه أن أمه قد تبرعت له بمكان أبيه مراعاة له وتبديدا لظنونه السابقة في وفائها لأبيه ، لهذا احتل مقعد أبيه أو الكرسي الذي وضع للخاطب « جورج فوكولت » محل كرسي أبيه ، وقلبه يخفق من الفرح والشكر وحلقه غاص من الذكرى والحنين ... وانتهى الغداء وخلا المكان « بشارل » وبأمه فضم « شارل » أمه إلى صدره بشوق وشكران وراح يقول لها وقد أرخى لعبراته العنان حتى بلت وجه الأم المسكينة الحائرة .

— آه ، شكرا لك ألف مرة يا أماه . فقالت أمه في حيرة :

— ولكن لم هذا الشكر يا بني ؟ ! فقاطعها دون أن يترك لها الفرصة لمتابعة حديثها :

— أشكرك لأنك أحللتني محل أبي على مائدة الطعام في اليوم الذي تخلعين عنك فيه ثوب الحداد . إنك لا تدرين أي جميل أسديته إلي وملأ به قلبي الحزين ... آه ... ولكن يجب أن أعترف لك بصراحة . لقد كنت منذ زمن أشك ، بل أخاف من تصرفاتك فاغفري لي الآن هذه الشكوك والظنون ... نعم كنت أخشى أن تسنح لك في يوم ما فكرة الزواج لأنك ما تزالين صبية . ولقد أبصرت ثلاث أمهات من أمهات رفقائي في المدرسة يتزوجن ويسلمن أبناءهن لأب ثان غريب منهم . ولكنك أجلستني تجاهك منذ لحظة على مقعد أبي المرحوم فأدركت أنك تريدين أن تقولي لي : املأ محل أبيك يا بني فقد آن لك أن تشغله وتواجه أختك وأخاك العزيزين وأمك التي تحبك ، ولكن إن شغل مكان أبي ذلك الأب الذكي الطيب ، فذلك ما ليس في وسعي ولكن أعاهدك أن أبذل له جهدي . وهنا تمثل لمدام « ليجيه » أنها كانت ستحطم قلب ابنها النبيل لو أنها انقادت لهواها الذي بدأت تشعر به نحو « شارل »

وفي هذه اللحظة وبينما « مدام ليجيه » تضطرب بين الماضي والحاضر ، وتترجح بين تيارين طاغيين . تيار جارف عنيف من حب امرأة صبية حسناء ، وآخر هادئ عميق من عطف أم رؤوم ، إذا برنين الجرس ينتزعها من ذراعي ابنها الذي كانت تحتضنه وتضمه إلى صدرها بحرارة وشوق ..

لم تكن مخدوعة فقد جاءها الخادم بعد ثوان يطلب الإذن لموسيو جورج الخاطب الجديد ، فأبدى ابنها « شارل » حركة مفاجئة أراد معها الانسحاب من قاعة الاستقبال ولكن الأم فهمت منه هذه الحركة فقالت في كبرياء ممزوجة بألم :

إبق مكانك يا « شارل » ثم التفتت إلى الخادم وتقول :

— قل لموسيو « جورج فوكولت » إنه من المستحيل على مواجهته هذه الساعة وسأكتب له جوابي كتابة ...

وحين انفردت بابنها راحت تعانقه في لهفة وابتهاج ثم قالت :

أبدا لن أتزوج يا شارل العزيز . أبدا لن أثقل عليك بأب يؤلم نفسك ويجرح قلبك . لن أرضى أن تتألم أنت كي أسعد أنا . إنك حسبي من دنياي يا بني وأظن أني حسبك أيضا

ك . ع

مطبعة الرسالة